الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الاجتماعية
قسم الفلسفة تخصص: الفلسفة اليونانية

الموت بين الفلسفة والتصوف "سقراط"و"الحلاج" نموذجين.

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

من اعداد الطالبة: تحت إشراف:
بن عيسى خيرة د. بوزيد بومدين

لجنـــــة المناقشة:
أ د: الزاوي حسين رئيسا
د: بوزيد بومدين مشرفا
أ.د: البخاري حمانة مناقشا
د: العايدي عبد الكريم مناقشا

السنة الجامعية :2006-2007

المقــدمة :

قد يجد العلم اليوم تفسيرا لبعض للمشاكل التي تعـترض الإنسـان فـي حيـاته ، وقـد تخـترق التكنولوجيـا بتقنياتهـا المتطـورة أدق الأشـياء الموجودة في العالم وتصل البيولوجيا من جانبها إلى حلول كثيرة ومفيدة ،وحـتى الفلسـفة تسـتطيع أن تتنـاول مواضـيع علـى اختلافهـا وتعـددها وتدرسها دراسة نقدية تحليلية وتقدم قراءات حولها ، لكن لا يوجد إلـى يومنا هذا علم يستطيع أن يجد حلا لمشـكلة المـوت أو لحادثـة المـوت لأنه لا يمكن لأي معطى التخفيف منها أو حتى تجاوزها .

ولأن مشكلة الموت كانت ولا تزال تشكل هاجسا كبيرا للإنسـانية ، وارتبطت بتفسيرات مختلفة تغلغلت في الوجود البشـري الـذي حـاول منذ بداية تفكيره أن يقدم تفسيرات له وتـبريرات حـوله، فكـان المـوت حاضرا في الأسطورة وحاضرا فـي الـدين ، ولا شـك فـي أنـه هـو الـذي لفت انتباه البشرية إلى عالم الغيب والميتافيزيقيا ...

هذا فضلا على أن الموت يتجاوز بـل يخـرج عـن نطـاق تفكيرنـا ، فنحن لا نستطيع تحصيل معرفة مباشرة به ، وكل مـا يمكـن أن نقـوله عنه هـو فقـط مـن خلال تجربـة الآخـر أمـام المـوت ، كتجربـة أقربائنـا وأصدقائنا ومن ثمة تجربة «سقراط» و«الحلاج».

و لا يختلف اثنان في أننا كلمـا زدنـا معرفـة بـالموت كلمـا زاد الأمـر غموضا لفهم طبيعته و من ثمة محاولة لفهم هذه الطبيعة ، ولأن الموت يقهرنا ويحطم مشاعرنا وأحاسيسنا ويضعفنا مهما كنا أقوياء ، ويأخذ مـن بين أيدينا ممتلكاتنا ... لذلك كله اخترنا هـذا الموضـوع علنـا نسـتطيع أن نقهره بدل أن يقهرنا ، أما اختيارنا للمقاربة بين سقراط والحلاج هي فـي الحقيقة مقاربة بين الفلسفة والتصوف بحثا فيما إذا كان هناك توفقا بيـن الخطابين ، ومن ثمة محاولة لاستقراء أو بـالأحرى لاسـتنطاق لا أقـوال سقراط والحلاج فقط وإنما حادثة مـوت كـل واحـد ، وكأنهـا لوحـة فنيـة بالنسبة لهما و مأساويا بالنسبة لغيرهما تعرض نفسـها علـى العـالم فـي متحف أفكارنا وتأملاتنا بل في ذاكرة المثقف .

وهو ما يحـدد راهنيـة إشـكالية المـوت ... حيـث أن المـوت يعتـبر مصيرا حتميا ملازما للإنسان في كل لحظة مـن لحظـات حيـاته وفـي كل خطوة من خطـواته ، مـن هنـا ارتبـط المـوت بالجـانب التشـاؤمي والمأساوي للحياة الإنسـانية ،ومـن هنـا كـذلك تلـك التسـاؤلات حـوله وحول الحياة ودلالاتهما وطبيعة علاقتهما .

إن مثل هذه الأسئلة الفلسفية وغيرها ، هي التي كانت وراء العديـد من محاولات الإجابة ، وهي المحـاولات الـتي أخـذ البعـض منهـا طابعـا ميتافيزيقيا تارة وأسطوريا ميتودولوجيا تارة أخرى بل دينـا وبيولوجيـا ... وفلسفيا وصوفيا .

وهذين الطابعين الأخيرين هـو مـا اخترنـاه موضـوعا لهـذه الرسـالة وذلك من خلال صوفيين بقدر ما هما فلسفيين أثرا في كل مـن التصـوف العالمي والإسلامي على حدا أيما تأثير.

إن كل مـن الصـوفيين «سـقراط» رمـز الفلسـفة و «الحلاج» أحـد أعلام التصوف ، انتهيا على يد المعـادين لكـل مـن الفلسـفة و التصـوف بفقـدانهما لحياتهمـا مـن أجـل أفكارهمـا ومبادئهـا الـتي ارتضـياها دليلا لحياتهما أولا...ولحياة الآخرين بعد ذلك ، ومن هنا تتجلى أهمية وعظمـة لا أفكارهما فحسـب بـل ومواقفهمـا مـن اجـل تجسـيده - أي المـوت - والتي كانت حياتهما ثمنا له .

وإذا كان الموت من وجهة نظر عامة هـو المضـاد للحيـاة أو توقـف الوظائف الحيوية عند البيولوجيين ، فـإنه بالنسـبة للفلسـفة وبالتحديـد عنـد «سـقراط» السـبيل إلـى الحقيقـة والمعرفـة الخالصـة ، وأن الفلسفة في حد ذاتها ما هي إلا تدرب على الموت .

أما بالنسبة للتصوف عند «الحلاج» هو أيضـا الحقيقـة الـتي يتواجـد حتى لا نقول يتوحد فيها المحب بـالمحبوب مـن خلال اتصـال العاشـق وعن طريق الموت بالمعشوق .

وهذين التعريفين الفلسفي والصوفي همـا اللـذين سـننطلق منهمـا في دراستنا هذه بشكل أساسي .

واستنادا إلى ما تقدم وعلى خلاف مـا اعتـدنا سـمعه عـن المـوت في أنه نهاية الحياة ،أو مـن أصـعب اللحظـات الـتي يمكـن أن يواجههـا الإنسان و انه الانفصال النهائي ... فإننا سنتناول الموت ليـس كمفهـوم الموت ،وإنما بمعنـى الحيـاة فيجـوز أن نقـول " الحيـاة بين الفلسـفة والتصوف " عند الحكيمين «سقراط» و «الحلاج» .

والإشكالية التي ننطلق منها في هذه الرسالة هي تلك التي تؤكد أن المـوت عنـد كـل مـن «سـقراط» و«الحلاج» هـو طريـق للحيـاة الحقيقة وليس نهاية لها ،وإن اختلف كل منهما في طبيعة هذه الحقيقة .

وقد اعتمـدنا علـى المنهـج التحليلـي النقـدي المقـارن الـذي مـن صلاحياته العرض والمقارنة بين الموت الفلسـفي السـقراطي والمـوت الصوفي الحلاجي بطريقة تحليلية نقدية مع دراسـة العلاقـات المتجـددة والمستمرة مع بعضها البعض .

كما أننا على يقين مـن أن تنـاول موضـوع التصـوف خاصـة عنـدما يختلط بالفلسفة- كما هو الحال بالنسبة لهذه الرسـالة -، وعنـدما تكـون شخصياته من أبرز الشخصيات العالميـة الفلسـفية والصـوفية لا يخلـوا من العديد من الصعوبات للإمساك به ولمحاولات الكشـف عـن بعـض الجوانب الجديدة فيه والتي لم تكشفها الدراسـات الـتي سـبقت حـول هذا الموضوع .

ولعل أهم الصعوبات التي واجهتنا في هذه الدراسة هي غياب المصادر، وإن كان" أفلاطون" يعد مصدرا بالنسبة للذي لم يكتب شيئا أي سقراط من خلال محاوراته التي لم تعرف ترجمة عن أصلها اليوناني إلى العربية إلا مؤخرا، فإن كتابات الحلاج غائبة نظرا للحرق والإتلاف الذي تعرضت له ما عدا كتاب الطواسين والديوان ، إضافة إلى قلة المراجع التي تتناول بالتحديد إشكالية الموت بين الخطاب الفلسفي و الصوفي .

وتتكون هذه الرسالة من ثلاثة فصول إضافة إلى مقدمة وخاتمة .

فالفصل الأول خصصناه للإحاطة بمفهوم الموت وسياقاته المعرفية عبر تاريخ الوجدان البشري ، وقد قسمناه إلى ثلاثة مباحث قدمنا في المبحث الأول تعريف للمفاهيم المحورية وحقولها الدلالية وهي: الموت ، الفلسفة ، والتصوف.

أما المبحث الثاني فقد خصصناه لجنيالوجيا المفهوم - إن صح التعبير- ، أو بالأحرى كيف فهم الإنسان الموت ومدى حضوره في الوجدان البشري عند الحضارات القديمة ما قبل الفلسفة اليونانية عند المصريين والهنود، وفي الدراسات الفلسفية وفي مرحلة ما قبل «سقراط» ومرحلة «سقراط» وبعده .

كما عرجنا في المبحث الثالث على الموت في الديانات الكتابية اليهودية والمسيحية والإسلام ، وأشرنا إلى الموت عند صوفية الإسلام ، ثم في عصر النهضة والفلسفة المعاصرة ، لننتقل إلى الفصل الثاني الذي تناولنا فيه الموت في نظر كل من الفلسفة والتصوف وذلك من خلال تجربة «سقراط» و «الحلاج» بصورة خاصة ، وقسمناه إلى مبحثين، أما المبحث الأول عرضنا فيه لمفهوم الموت عند «سقراط» وطبيعته وعلاقته بالقانون والمدينة ، وكيف أنه طريق للمعرفة الخالصة والحقيقة و تناولنا في المبحث الثاني الموت عند «الحلاج» ، كيف فهمه وكيف أعتبره رسالة في الحياة ، وأنه طريق للالتقاء والارتقاء والتواصل بين العاشق والمعشوق .

في حين أن الفصل الثالث قسمناه إلى مبحثين ، الأول يتوقف عند حقيقة الموت بين الفلسفة والتصوف عامة و «سقراط» و»الحلاج» خاصة ، وكيف أن الموت كان بالنسبة لهما حياة جديدة وهل هو بداية أم نهاية ، استشهادا أم إعداما .

أما المبحث الأخير فقد تناولنا فيه إشكالية الخلود بين الفلسفة والتصوف، وأثر كل من مواقف أفكار «سقراط» و»الحلاج» على مقاربة الفلاسفة والمتصوفة الذين جاءوا من بعدهما .

وانتهينا بخاتمة تناولنا فيها أهم النقاط والاستنتاجات التي تدور حولها المذكرة .

إن الغاية والهدف الذي نرجوه من وراء هـذه الدراسـة هـو أن تعيـن القارئ على أن يحصل علـى مثـل هـذه المعرفـة ، إن غـايته الأولـى هـي كشف الغموض عن هذه الإشكالية والمساعدة على الإجابة علـى بعـض الأسئلة الغامضة لدينا ،خصوصـا وأن الدراسـة فـي هـذا المجـال لا تـزال محدودة وقليلة .

الفصل الأول :

- **المفهوم وسياقاته الفلسفية .**

قد يعجز الواحد منا عندما يصادف مفهوما كالموت ليعرفه ، فنحن نستطيع أن نعرف الشيء من حيث وجوده كشيء ملموس فنقول أنه يتكون من شيء ما ، أو نعرف المواضيع إذا كانت محسوسة أي نشعر بها فنطلق عليها مجموعة من المفاهيم لنصفها أو لنعرف بطبيعتها وحقيقتها وجوهرها .

لكن الموت يختلف عن كل المواضيع التي نلمسها أو نحس بها فنحن نعلم بأننا سنموت ، وبأن الموت شيء موجود ، لكن لا نستطيع أن نعرفه لأننا لا نعيشه في اللحظة التي نعرفه فيها أو قبلها وإنما يكون كحدث لاحق يصعب على المرء أن يفهمه كتجربة خاصة ، فكل ما نقوله عن الموت هو من خلال التجربة التي عاشها الآخر أي من خلال حادثة الموت في الواقع.

رغم كل هذه الصعوبة والغموض في بعض الأحيان، إلا انه توجد تعار يف عديدة للموت ، فيقال الموت الروحي ، والموت المعنوي ، والموت المادي ، وموت القلب ، وموت الجسد ، وموت الكلمة ، والموت الحقيقي «سقراط» ، وموت العاشق في المعشوق «الحلاج» ويقال الموت، وكلها وإن اختصت بجانب معين فإنها تعني نهاية أو تمام

تعريف الموت :

الموت([1]) MORT لغة من الفعل مات يموت موتا، بمعنى توفى وانقضى أجله وهلك ،" و اصل معناه انعدام القوة النامية في الحيوان والنبات،و يعم فيكون زوال القوة الحسية وزوال القوة العاقلة وهو الجهالة والحزن والخوف المكدر للحياة"[2]، والموت ضد الحياة ([3])،

يقول ابن منظور في كتابه " لسان العرب :"يقال مات فلان وتوفى وأودى وهلك وقاسى الموت الأحمر ، والموت الصُهابي وهو الموت قتلا ، والموت الأغبر وهو الموت جوعا ، والموت الأسود وهو الموت خنقا أو غرقا والموت الأبيض وهو موت الفجأة .

وإلى جانب هذا التعريف اللغوي نجد أن الموت ارتبط بجميع المجالات الفكرية والفلسفية وحتى الدينية، وإنه لمن الصعب أن نجمع كل هذه التعاريف دون الوقوف عند كل خطاب ...إلا أن ما يمكن قوله والتأكيد عليه أو بالأحرى ما أتفق عليه في تعريف الموت هو أنه نهاية أو ضد الحياة ، أو الوجه الآخر للحياة ، أو الانتقال من الحركة إلى السكون .

---

[1] 1- إن التفسير العلمي البيولوجي للموت هو : التوقف النهائي والكامل لكل الوظائف الحيوية في الجسم ، وتهدم الوحدات النسيجية والخلايا ويمكن تحديد ذلك عبر الخطوات الثلاث التالية ، بدون تفاعل وبدون تفكير ، وانعدام التنفس وتوقف الوظائف الدماغية ، العصبية

[2] -الشيخ احمد رضا، معجم متن اللغة العربية،موسوعة لغوية حديثة،مجلد 5،دار مكتبة الحيات، بيروت،1960، بدون طبعة،ص 363.

[3] - الحياة في اللغة نقيض الموت وهي النمو والبقاء والمنفعة ،والحي من كل شيء نقيض الميت والحي أيضا كل متكلم ناطق ويعرفها علماء الحياة بأنها مجموع ما يشاهد في الحيوانات والنباتات من مميزات ، تفرق بينها وبين الجمادات مثل التغذية والنمو والتناسل .

وسيكون لنا حديث مطول في المباحث اللاحقة عن الموت من حيث حضوره كجزء من الطبيعة الإنسانية وكاعتقاد وكأسطورة وكخلاص وكموضوع للتأمل ... وفي بعض الأحيان كسلطة قاهرة .

ولأن فكرة الموت كان لها حضور قوي في الفلسفة والتصوف على حد السواء فإننا سنحاول فيما يلي تقديم تعريف لكل منهما.

الفلسفة والموت:

التعريف الاشتقاقي للفلسفة : philosophie

ليست هناك طريقة واحدة يقال عنها أنما الطريقة الصحيحة في تناول المشكلات الفلسفية ، وليس هناك اتجاه معين اتخذه الفيلسوف يقال عنه أنه يؤدي بالضرورة إلى الحقائق الصحيحة والنهائية .

ولأن الإنتاج الفلسفي والفكري كان متنوعا وهائلا ويعبر عن قدرة العقل الإنساني على الإبداع والتحليل فإنه من الصعب أن نحاول تقديم تعرف للفلسفة ضمن إطار فلسفي ، لأن أفكارنا ستكون في ذاتها تعبيرا عن طبيعة هذا التفكير ، وليس هذا فحسب لأن هذا المجال الفكري الواسع الذي يجمع في كلمة فلسفة، قد تجاوز الحدود التي لم تستطع العلوم الأخرى تجاوزها فنجده في جميع المجالات وفي جميع الأنساق إن لم يكن نقدا كان تفسيرا وإن لم يكن تحليلا كان تحديدا ...

لكن في كل الأحوال تبقى الفلسفة المفهوم الوحيد الذي يصعب علينا تعريفه إن لم نقل نعجز على تقديم تحديد شامل وكامل له ، وحتى الفلسفة في حد ذاتها من خلال روادها أعطت لنفسها مصطلحات وعبارات تتوافق مع نسق صاحبها وتفكيره واتجاهه، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفات المعاصرة، وكل ما سنقدمه كتعريف للفلسفة هو المعنى العام المشترك بين جميع الانساق وذلك من خلال عزل الخصائص الفارقة والتكلم فقط عن الخصائص المشتركة بدون التطرق إلى تطور الفكر الفلسفي عبر مراحل تاريخ الفلسفات والمذاهب الكبرى لأن ذلك يتطلب دراسة معمقة وواسعة ، إذن كيف تعرف الفلسفة في الاشتقاق اللغوي ؟

اعتدنا دائما عندما يطلب منا تقديم تعريف الفلسفة العودة إلى الأصل الذي نشأت منه فنقول أنها اسم يوناني دخيل على اللغة العربية وهو مركب من جزأين" فيلو " philo و "سوفيا" Sophia يقصد بالأولى إيثار أو حب ويقصد" بسوفيا "الحكمة ، فيصبح معنى الفلسفة بذلك حب وإيثار الحكمة ففيلوسوفيا philosophia كلمة يونانية من مقطعين هما فيلو بمعنى حب وصوفيا بمعنى الحكمة فتكون الفلسفة هي حب الحكمة"([1]).

[1] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الفلسفية ، دار المعارف للطباعة و النشر، تونس ، نوفمبر 1996 ،ص 316.

لكن عندما نتكلم في أصل الكلمة فهذا لا يعني أن هذا النوع من التفكير أو الحكمة ([1]) لم يوجد عند الأمم الأخرى كالحضارات الشرقية الهندية والمصرية مثلا ، لأن هذا النوع من التفكير موجود عند الإنسان ولو كان في صورة بسيطة وبدون تنظير ، فالإنسان ما قبل اليوناني أيضا فكر في المسائل المتودولوجية و الميتافيزيقية واللاهوتية والطبيعية ...التي تظمنتها الفلسفة في هذه المرحلة لكن اليونان هم من نظر لهذا الفكر وقام بوضعه ضمن مجال أو نسق .

فالفلسفة هي كل بحث أو معرفة تهدف إلى الغوص في عمق الأشياء كما يقول أفلاطون " هي علم الحقائق المطبقة الكامنة خلف ظواهر الأشياء " أو كما يقول أرسطو في قولته المشهورة " هي البحث في الوجود بما هو موجود " ، بمعنى أنها تحاول دراسة الكون ككل بجميع جوانبه ، وهي تختلف بذلك عن العلوم الأخرى التي تتناول جزء من المعرفة أو مجالا خاصا ،" أما الفلسفة فإنها تظطرد لهذه السيرورة إلى حدها الأقصى فهي تعمم بأكبر ما يسعها من تعميم وهي تسعى إلى رأيه الكون بأسره في ضوء أقل المبادئ العامة الممكنة ، بل تسعى إلى رأيته في ضوء مبدأ أقصى واحد لو أمكن "([2]).

وبذلك فلم" يعرفها التعريف الموسوعي سوى أرسطو لأنه كان هو نفسه موسوعيا ، فجعل الفلسفة تشمل كل المعارف العقلية ابتداءا من التشريع إلى الميتافيزيقا " ([3]).

وهو ما يجعلها تختلف عن بقية العلوم الأخرى لأن هذه الأخيرة تؤمن بمجموعة من المبادئ المعترف بها وكلما اتسع ميدان عملها كلما تطورت هذه العلوم في حين أن الفلسفة " متعلقة من دائرة مسائل تظل جوهريا هي نفسها ولكن بصورة مختلفة ، ويكون طابعها المشترك هو عدم قدرتها على الخضوع لرقابة الاختيار "([4]) .

وفي نفس المجال نجد أن "لالاند" يعطي تعريفات عديدة للفلسفة حيث يقول بأنها " معرفة عقلانية ، علم بالمعنى الأعم للكلمة" ([5])، وهذا تأكيد على طبيعة المعرفة الفلسفية ومستواها الفكري وقدرتها على الغوص في جميع الموضوعات التي تثير فضول الإنسان أي الوجود بأكمله وانطلاقا من معطياته فهي إذا " البحث في الوجود بما هو موجود " كما يقول أرسطو.

فالفلسفة تجسد قدرة العقل الإنساني المتفلسف الأول واللاحق " فهي التي تقدم تفسيرا للكون وهي التي تدرس الموضوعات الأكثر عمومية" ([6]).

---

[1] - استخدم هو مر الحكمة بمعنى البراعة في تشغيل الآلات وإدارة الأعمال ، وهيرودوت استخدمها بمعنى التمدن القائم على التجربة الطويلة والدراسة بالمسائل المختلفة وفي الفلسفة هي البحث عن الحقيقة وهي المعرفة القائمة على التأمل

[2] - ولتر سيتس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ،مجاهد عبد المنعم مجاهد ، مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ،2005 ط 2 ، ص 14.

[3] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الفلسفية ، مذكور سابقا ص 317.

[4] - أندري لالاند ، موسعة لالاند الفلسفية ، الجزء الثاني ، تعريب خليل أحمد خليل ، تعهده وأشرف عليه أحمد عويدات ، بيروت ، باريس 1996 ط 1 ص 981 .

[5] - المرجع نفسه ، ص 980

[6]- GEOROES POLITGER –PRINCIPES ELEMENTAIRES DE PHILOSOPHIE –EDITIONS SOCIALES .PARIS 1997-P 18.

ويضيف لالاند في تعريفه للفلسفة بأنها " مجموعة دراسات أو اعتبارات تمثل درجة رفيعة من العمومية وتنزع إلى رد كل نظام معرفي أو كل المعرفة البشرية إلى عدد صغير من المبادئ الموجهة "[1]، فالفلسفة بهذا المعنى الأخير تتخذ لنفسها حيزا واسعا تستطيع من خلاله أن تجتاز جميع الحدود وتكسر جميع العقبات ، مشكلة بذلك مجموعة من المبادئ والمعارف تحصر من خلالها مفهوما للكون بجميع معطياته أو تضعه محل نقاش ونقد وتحليل ، فالفلسفة استطاعت أن تحول الوجود كله إلى مجرد سؤال يطرح نفسه بصياغات متعددة وكل صياغة تختلف عن الأخرى وتقبل كل الإجابات هذه الأخيرة التي لا تعتبر إجابة نهائية ودقيقة مثل العلوم التجريبية وإنما كل إجابة هي فتح لسؤال جديد ومستمر باستمرار قدرة الإنسان على التفكير والسؤال " وعندئذ تصبح مهمة الفلسفة هي المناقشة النقدية لكل المناقشات النقدية السابقة عليها بمعنى أن قيمة الفلسفة ليست فيما تقدمه من حلول نهائية للمسائل التي يطرحها ، إذ ليس من الضروري أن تكون هناك إجابة نهائية صحيحة وإنما قيمة الفلسفة في مناقشاتها المفتوحة التي تتيحها لتوسيع أفق الفكر ولإثراء خيالنا العقلي والتحليلي و التوكيد الجزمي ..." [2].

إذا الفلسفة هي " دراسة الفكر من حيث تميزه بميزة الأحكام القيمة ، بهذا المعنى يكون مركز الفلسفة المجموعة المكونة من العلوم المعيارية الأساسية الثلاث الأخلاقيات الجماليات المنطق " [3].

ولأن الفلسفة لازمت الإنسان عبر جميع مراحل حياته الفكرية والإبداعية منذ لحظة التي بدأ فيها يلاحظ ويتعجب ويتساءل حول جميع الأشياء المحيطة به- أو منذ لحظة الدهشة - فإن تعريفاتها تختلف من مرحلة فكرية إلى أخرى لكنها تحافظ دائما على عمقها وشموليتها أو طبيعتها أو كما يقول هيغل :" إنها مفهوم التكون الكلي للوعي والجوهر الروحي للشرط في مجمله ، وروح العصر القائم كروح مفتكر بذاته esprit que se pense ، إنها الكل المتعدد الأشكال ينعكس في الفلسفة بوصفها بؤرة بسيطة وبوصفها ذات مفهوم يعرف نفسه " [4].

هذا وإن تعارضت الخطابات الفلسفية وانتقد بعضها بعضا ، واختار كل خطاب لنفسه نسقا معرفيا ما ، فإن ذلك تعبير عن الطبيعة الجوهرية للفلسفة القائمة على النقد والتحليل... والتأمل قبل ذلك كله، حتى أنها تعرف في بعض الأحيان " بفن الحياة " كما يقول : " شيشرون " وهي كذلك ، لأنها إبداع وإنتاج وتأمل روحي في الحياة ليس بشكل عقلي فقط وإنما هي تعبير عن المشاعر والرغبة والعواطف في بعض الأحيان ، ولا يمكن في أي لحظة فكرية أن نتجاهل قيمة الفلسفة لأنها تعبر قبل كل شيء عن قيمة الإنسان المتكلم بها "، وحتى وإن اختلفت وجهات النظر حول موضوع ما، فإن الفلسفة ستحتضن

[1] - أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية،مذكور سابقا ص 980.
[2] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الفلسفية، مذكورة سابقا ص 319 .
[3] - أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية، مذكورة سابقا ص 981.
[4] - هيغل ، محاضرات في تاريخ الفلسفة ، مقدمة حول منظومة الفلسفة وتاريخها ، ترجمة خليل أحمد خليل ،مجد المؤسسة الجامعية للدراسة للنشر والتوزيع ،2002 .ط 2 ص 43.

هذا الاختلاف وستقبله وتحلله فلا يسعنا هنا إلا أن نقول بأن الفلسفة هي أسلوب في الحياة وحول الحياة والتصالح مع هذه الحياة.

ولأننا بصدد دراسة الموت فسوف نقدم ما قاله أفلاطون عنها " فعالية التفلسف أن أن نتعلم كيف نتصالح مع الموت بأن نتعلم أن نصل أسبابنا بما هو أبدي من خلال التأمل الفلسفي "([1])

إن الفلسفة تعبر عن مجال واسع و عن منطلقات تفتح باب التأمل و كأنها ديمقراطية في التفكير تسمح لنا بالتعبير عن جميع ما يمكن أن نفكر فيه و تحتضن جمع آرائنا , و تدعونا للتأمل و النقد و التحليل , بل إنها تجعل منا فلاسفة , قد أكون مبالغة في قولي هذا لكن إذا سألنا أحدا عن موضوع ما و إن كان هدا الشخص عاديا فإن إجابته ستكتسي طابعا فلسفيا ففي بعض الأحيان و ليس جميعها تعبر عن رأية فلسفية لكن تحتاج إلى نوع من التنظير , فالإنسان فيلسوف بالفطرة – إن صح التعبير –

و بالطبع سنجد أن الفلسفة كانت لها علاقة بموضوع الموت كإشكالية رئيسية في بعض الأحيان و جزئية في أحيان أخرى , و حتى استثنائية و غير مهمة....

و تشير بعض الدراسات إلى أن الاهتمام الحقيقي للفلسفة بإشكالية الموت بدأ عندما تراجعت سلطة الدين ، فالفلسفة لم تشرع في الاهتمام بالموت إلا حينما أصبح" التأكيد الذي يطرحه الدين مشكوكا فيه و موضع ريبة، أو حينما بدا هذا التأكيد الديني في تناقض لا مفر منه مع شهادة حواسنا المباشرة التي لا جدال فيها و حينما أصبح الرد الديني على الموت موضع تشكك سعت الفلسفة إلى دعمه بحجج عقلانية" ([2])

على أن علاقة الفلسفة بإشكالية الموت أو بالإحدى التأمل الفلسفي للموت تظهر عموما على ثلاثة أشكال , فإما أن يكون الموت طريقا إلى المعرفة الحقيقة و التخلص من مطالب الجسد" كما يقول أفلاطون يمكن أن يكون الوضع المثالي للتفلسف حالة يمكن فيها وحدها أن يتحقق سعي الفيلسوف وراء المعرفة الحقة" ([3])، فسقراط يعتبر الفلسفة تدرب على الموت , والفلاسفة الحقيقيون هم وحدهم من يمارسون الموت , فتغدو بدلك الفلسفة تواصلا أو تصالحا مع هدا المصير الحتمي الذي يخيفنا و يفزعنا بل و

---

[1] - عبد المنعم حنفي – الموسوعة الفلسفية – مذكور سابقا ص 473.

[2]- جاك شورون , الموت في الفكر العربي , مذكور سابقا , ص 280.

[3] - المرجع السابق , ص 281.

يقهرنا كأقوى سلطة لا نستطيع التصدي لها فالفلسفة هي" إعداد للموت "([1])

و إما أن يكون الموت ملهما للفلسفة و ما نحا لها القدرة على التأمل و الإبداع الفلسفي و نجد هذه الفكرة واضحة بشكل جلي مع " شو بنهاور" الذي يقول "إن الموت هو العبقرية الحق ة الملهم ة , أو ملهم الفلسفة و قد عرف سقراط الفلسفة بأنها معرفة الموت , و الواقع أنه بدون الموت لا يمكن للبشر أن يتفلسفوا" ([2]) و يكون دلك من خلال تجاوز الخوف منه و التصالح معه.

[1] - جيمس . ب. كارس , الموت و الوجود , مدكور سابقا , ص 605.
[2] - جاك شورون , الموت في الفكر العربي , مدكوباتيا , ص 172.

الصوفية والموت:

قد لا أكون مبالغة عندما أقول أن الصوفية من أكبر الاتجاهات الإنسانية والروحية والتي كان لها تأثير كبير على الوجدان الإنساني العالمي .

فالصوفية وإن كانت قد ارتبطت بفكرنا وحياتنا كفكرة موجودة عند بعضنا أو غيرنا أو كممارسة روحية ، فإننا لا يمكن أن نفهمها في الظاهر دون التعمق في علاقة الفكر والروح والحياة الإنسانية بها ، فهي كغيرها من المفاهيم تعبر عن معنى معين خلق لذاته نفوذا فكريا وتاريخيا وحتى روحيا وخاصة دينيا منذ بدايات الوجود الإنساني إلى يومنا هذا ،إذا ما هي الصوفية ؟

لقد كانت الصوفية كممارسة أو كفكرة موجودة عند الإنسان منذ القدم خاصة عندما تبلور الجانب الروحي عنده ،فالإنسان كان دائما يحمل في داخله إيمانا بشيء ما ، ويفنى في الإخلاص له والزهد في الدنيا ، لكن هذا الإيمان - إن صح التعبير- ارتبط بمواضيع كثيرة منها ما كان خرافيا ومنها ما كان أسطوريا والآخر كان دينيا ...

غير أنه قد " ظهر هذا الاسم أول مرة حسب الوثائق المعروفة الآن سنة 776 للميلاد ونسب إلى متزهد عراقي ، وابتدءا من القرن التاسع ميلادي كان مصطلح الصوفية يدل في الكوفة وبغداد على جماعة من الزهاد والمتصوفين اشتهروا بتقشفهم ، وظهر في الإسكندرية سنة 821 ميلادية جماعة من المتطرفين الذين ثاروا على فساد السلطة "([1]).

كما أن " ابن خلدون " هو الآخر درس التصوف وتاريخه حيث اعتبره" علما من العلوم الشرعية الحادثة في الملة "([2]) ويؤرخ له منذ القرن الثاني حين اتجه الناس إلى متاع الدنيا ، فظهرت هذه الطريقة الصوفية من طرف جماعة من المتصوفين اختصت في ذلك ، وبالإضافة إلى هذا هناك الكثير من المصادر التي تؤكد بأن التصوف ظهر في العالم الإسلامي على شكل نوع من الترقي عن متاع الدنيا والترفع عنه " فقد ظهرت بذور التصوف في سماء الفكر الإسلامي في بداية القرن الثاني هجري على هيئة نزاعات شديدة أثرت تأثيرا كبيرا في جميع جوانب الحياة "([3]).

وحول كلمة الصوفية وأصلها ظهرت الكثير من الاشتقاقات المختلفة والتي يمكن أن نوجز أهمها فيما يلي :

اشتقاق كلمة الصوفية :

يقال اشتقت في اللغة العربية من كلمة الصفاء ، وهي صفاء القلب ويكون ذلك عندما يتطهر الإنسان من جميع الشهوات وينقطع عن الدنيا وينكب على حياة روحية خالصة مع الله وذلك " لصفاء أسرار أصحابها ونقاء آثارهم " ([4]).

في حين أن هناك من يقول بأن لفظ الصوفية يرتبط " بأهل الصفة ".وكانوا يجلسون في " مؤخرة مجسد النبي بالمدينة حيث كان ينزل بها من

---

[1] - جان شوقلي ، التصوف والمتصوفة، ترجمة عبد القادر قنيني ، افريقيا الشرق بدون طبعة سنة 1999 ص 07 .

[2] - ابن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1 ، ص 462.

[3] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، مكتبة مدبولي ط 2 -1999 ،ص 21.

[4] - أحمد توفيق ، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، المكتبة الانجلومصرية ،القاهرة سبتمبر 1970، ص 13.

فقـراء المسـلمين مـن ليـس لـه أهـل ولا مكـان يـأوي إليـه ... وكـانوا فقـراء المسلمين من أهل الصفة ..." ([1]).

وإذا كان اجتماع هؤلاء الفقراء المسلمين في المسجد بالمدينة يعـبر عـن التجرد والاتجاه إلى الله وعبادته في المسجد ، فان التصوف كان ينتسب إليهـم حيث يقول " السهر ودي " :" قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما تجتمـع الصـوفية قديما وحديثا في الزوايا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى تجارة وكان الرسول عليـه الصلاة والسلام يحث على مواساتهم ويؤاكلهم ويجالسهم "([2]) .

لكن هناك من ينفي الاشتقاق من اللغة العربية لأنه لا يوجد أصل اشـتقاقي لها لأنها تعبر عن لقب ،ونجد هذا الموقف عند القشيري الذي قـال : " اشـتقاقه من الصفاء أو من الصفة بعيد من جهة القياس اللغوي " ([3]).

واختلفت الروايات أيضا حول أصل هذه الكلمـة ، وأيـن وجـدت أول مـرة ، وعلى من أطلقت ، إذ هناك رواية تقول بأن أصل هذه الكلمة يعود إلى مـا قبـل الإسلام بعدة قرون حيث أطلقت على " رجل وهبته أمه لخدمة البيت الحـرام ، وكان يدعى الغوث بن بركان وقـد انقطـع هـذا الرجـل للعبـادة وخدمـة الكعبـة ...وقد أطلق عليه صوفي" ([4]).

ونجده في بعض الكتب الأخرى يلقب " الغوث بن مـر الـذي سـمي صـوفه لأنه ما كان يعيش لأمه ولـد ، فنـدرت لئـن عـاش لتعلقـن علـى رأسـه صـوفه ، ولتجعلنه ربيط الكعبة ففعلت فقيل له صوفه ، ولولده من بعده " ([5]).

ومنه نلاحظ أن الصوفية قد نسبت إلى هذا الرجل، وذلك يعود إلى فترة ما قبل الإسلام ويقال أن هناك قوم جاءت من بعده قد نسبت إليه لكـن يبقـى هـذا الرأي الأخير ضعيف نظرا لتعدد الاشتقاقات والتعاريف الخاصة بالصوفية .

إلا أنـه يكـاد يتفـق الكـثير مـن الدراسـيين علـى أن أصـل هـذه الكلمـة أو اشتقاقها هو من " الصوف " بحيث أنها أطلقت علـى مـن يلبـس الصـوف ،هـذا الأخير الذي كـان كرمـز لكـل زاهـد فـي أمـور الـدنيا وهـو يعـبر علـى التقشـف والاتجاه نحو ما هو باطني إذا " المتصـوف هـو مـن يلبـس رداء الصـوف ، وهـو علامة على فقـر ظـاهر أو علـى الأقـل يـدل هـذا اللبـاس علـى إرادة الانقطـاع ..."([6])، وفي نفس الاشتقاق هناك من يقول بأن هذا النوع من اللباس كان عنـد " الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا رعاتـا للأغنـام وأنهـم اتخـذوا مـن أوبارهـا ملابس تقيهم البرد في الخلاء "([7])، ويقال أن هذا الخلاء قد منح للأنبيـاء القـدرة على التفكير والتأمل في الدنيا ومتاعها والزهد في الحياة وكان ذلك عن طريـق التصوف ، ويروى عـن الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام أنـه كـان يرتـدي لبـاس

---

[1] - أهل الصفة : وهم فقراء المسلمين في العصر الأول الإسلامي ويقال أنهم اتجهوا إلى عبادة الله والعيش من صدقات الأغنياء المسلمين وقد لازموا مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة وتوجهوا إلى هذه الطريقة نظرا لصعوبة العيش والكسب المادي .

[2] - أحمد توفيق عياد ، نشأة التصوف الإسلامي ، مرجع مذكور سابقا، ص 09 .

[3] - ابن خلدون ، المقدمة ،مذكورسابقا، ص 462.

[4] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، مكتبة مديولي القاهرة ط 2 ،سنة 1999 .ص 22.

[5] - إبراهيم بسيوني ، نشأة التصوف الإسلامي ، دار المعارف بمصر بدون طبعة سنة 1969 .ص 11 .

[6] - جان شوقلي ، التصوف والمتصوفة ، مذكور سابقا ،ص 8.

[7] - عبد الحكيم عبد الغني قالسم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، مذكور سابقا ،ص 21.

الصوف حيث " يروى عن ابن ماجة والحاكم عن أنس أن رسول الله عليه الصلاة والسلام :" أكل خشنا ولبس خشنا ، لبس الصوف ، واحتذى المخصوف "([1]) ،وبالإضافة إلى ما سبق يقال أن الصوف هو الاشتقاق الاقرب إلى كلمة الصوفية لأن ذلك يتفق مع قواعد اللغة " ... فهي إلى الصوف – صوفي – قياسا مع قواعد اللغة "([2]).

وهناك 0 اشتقاق آخر لا يمكن المرور عليه هكذا ، حيث يقال أن كلمة صوفية قد تعود على الأرجح إلى أصول يونانية وذلك من " اللفظ الإغريقي الأصل Sophia – Sophos وهي الحكمة وقد نتج عن هذا الاشتقاق مدرسة في الحكمة " ([3]).

وربما يعود هذا الربط بين الصوفية وصوفيا اليونانية، إلى الحكمة التي تكون عند المتصوف إذ أنه " قد حاول بعض الباحثين أن يربط بين الكلمتين وما يضيفانه على أهلها من حكمة وأقوال مأثورة " ([4]).

ويرجع هذا الرأي الأخير إلى لأن الصوفية لم تعرف إلا بعد ترجمة الكتب اليونانية "ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة الكتب اليونانية إلى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها " ([5]).

لكن إذا اختلفت الاشتقاقات وتعددت حول كلمة الصوفية وأصلها فكيف يمكن تعريفها ؟ أو ماهي كمفهوم روحي وكممارسة؟

يعرفها ابن خلدون في مقدمته بأنها :" طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها "().

الموت في الخطاب الصوفي:

لا شك أن الموت هو من أهم المواضيع التي شغلت فكر وفلسفة الصوفية سواء المتصوفة المسلمين أو أي متصوف آخر ،ولأن «الحلاج» رغم صوفيته وزهده في الحياة إلا أن اسمه ارتبط فيما بعد بهذا المفهوم فيسمى في أغلب الكتابات " بشهيد الإسلام " أو "المصلوب " وهو تجسيد حقيقي للحظة الموت ، وقبول الموت ليس كمصير حتمي أو أجل فقط ، وإنما كخلاص وامتزاج بالمحبوب أو انحلال... سنترك كل هذه العبارات والمواقف الحلاجية تتكلم إن لم نقل تتفلسف عن نفسها في الفصل اللاحق ، وسنركز اهتمامنا هنا على الموت عند صوفية الإسلام بشكل عام ، وكيف كان فهمهم له ؟

فلقد قدم القرآن الكريم الحلول الشافية لكل المسائل التي كان فيها نوع من الغموض أو الشك ، وشرع المفكرون المسلمون في محاولة التوسع في النصوص الدينية ،لتقديم صيغة عقلية وكان لمتصوفة الإسلام أيضا دور في إبراز فكرة الموت من خلال حقيقتها ومدلولها وقيمتها وعلاقتها بالجسد ، فالغزالي

---

[1] - إبراهيم بسيوني ، نشأة التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا .ص 11 .

[2] - أحمد توفيق عياد، التصوف الإسلامي تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، مذكور سابق ، ص 14 .

[3] - المرجع السابق ص 09 .

[4] - عبد الحكيم عبد الغني قاسم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، مذكور سابقا ،ص 22 .

[5] - إبراهيم بسيوني ، نشأة التصوف الإسلامي ، دار المعرف بمصر ، بدون طبعة سنة 1969 ص 10.

يعرف الموت بأنه " تغير حال فقط " وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذبة إما منعمة " ([1]).

إلا أن هذا التعريف يبدوا أكثر اعتيادا لدنيا، أو بعبارة أوضح تعريفا متداولا عند الصوفية وغيرهم ، وإذا ما حاولنا أن نكون أكثر تخصيصا فإن الموت سيأخذ معنى أخر عند الصوفية أكثر تعبيرا عن الجانب الروحي والزهد في الحياة والابتعاد عن الدنيا وملذاتها ، أو" أنه يشكل فلسفة نفسية وخلقية إن لم يكن يشكل اتجاها عاما ونسقا متكاملا حول مفهوم الحياة وموقفهم من الدنيا والزهد فيها ، والاكتراث بالآخرة أشد من اكتراث غيرهم بالدنيا "([2]).

والموت عند الصوفية هو موت إرادي وموت طبيعي ، أما الأول فهو مجاهدة النفس ودفعها إلى التخلص من الشهوات والابتعاد عن الدنيا والزهد فيها وهو يعتمد على إرادة الإنسان وقدرته على التخلص من الأهواء ومطالب النفس ،ويمكن أن نعرض للموتات الأربع([3])عند الصوفية وهي الموت الأبيض والموت الأخضر والأحمر والأسود ، " فالموت الأبيض بمعنى الجوع والموت الأخضر بمعنى لبس المرقعات ، والموت الأحمر بمعنى مخالفة النفس ، والموت الأسود بمعنى تحمل الأذى "([4]).

فالموت عند الصوفية لم يرتبط بمعنى الخوف والفزع والهروب والقدر المحتوم، وإنما عبر عن خلاص و عن حياة خفية أسمى وأرقى يجب أن يسعى لها المريد لكي يحقق الاتصال الإرادي بالمحبوب ، ويترفع عن جميع شهوات النفس ورغباتها

---

[1] - د. إبراهيم محمد تركي ، فلسفة الموت عند الصوفية ، مذكور سابقا ، ص 95 .

[2] - د.مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ،ص 316 ، 317 .

[3] - ربما يكون لأبن عربي فضل السبق في إطلاق إسم الموتات الأربع على الصور الأربعة الخاصة بصور المجاهدة الروحية ويلاحظ أن هذه المصطلحات لم ترد في المؤلفات الصوفية السابقة

[4] - إبراهيم محمد تركي ، فلسفة الموت عند الصوفية ، مرجع مذكور سابقا ،ص 195 .

تعتبر مشكلة أو فكرة الموت من أهم الإشكاليات الإنسانية وأكثرها غموضا وعمقا ، ولأنها شغلت الإنسان منذ بدايات وجوده فإنها لا تزال تشكل هاجسا بالنسبة له ، إن لم نقل خوفا وقلقا ومصيرا حتميا ، ذلك لأنه لا يستطيع أن يحصل معها معرفة مباشرة ، أي أن هذا الانفصال الذي يحدث للإنسان في انتقاله من الحياة إلى الموت لا يمثل مجالا ممكنا لمعرفته ، لأنه نهاية مطلقة وهو ما يولد صعوبة في فهمه.

وبالرغم من أن كل واحد منا له فهمه ومعتقده الخاص حول الموت إلا أنه في الحقيقة استمده من ثقافة اجتماعية معينة أو محيطه به ، الأمر الذي يجعل للموت مفاهيم متعددة ومتنوعة بعضها أخذ طابعا ميتافيزيقيا وأسطوريا وميتودولوجيا وبعضها الآخر كان بيولوجيا، ودينيا ...وفلسفيا وصوفيا .

ولأن الأسطورة تعبر عن التفكير الأول واهتمام الإنسان بمواضيع الطبيعة بما فيها الموت ، فإننا سنحاول إعطاء بعض الأساطير التي تتحدث عنه.

إذ توجد بعض الأساطير التي تقول أن الموت وجد عندما طرد آدم من عالم الخلود وأصبح بذلك قابلا للفناء ، وبالتالي ارتبطت فكرة الموت بأول إنسان وجد على الأرض وخاصة عند ارتكابه للخطيئة ،" فلقد كان المعتقد أن الإنسان ولد خالدا ، وقد حل الموت بالعالم بسبب خطأ ارتكبه الرسول الذي كان يحمل هدية الإنعتاق من الموت ، فهو إما أنه شوه الرسالة نتيجة للنسيان أو للحقد أو أنه لم يصل في الوقت المناسب "([1]).

[1] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،ترجمة كامل يوسف حسين ، مراجعة وتقديم إمام عبد الفتاح إمام المجلس الوطني للثقافة،بدون طبعة،19847،ص 17.

كما توجد أساطير أخرى من بينها أسطورة "ناما بين الهو تنتوت "([1]) التي جاء فيها أن القمر أرسل القملة يوما لتعد الإنسان بالخلود وكانت الرسالة تقول : " كما أموت وفي مماتي أحيا كذلك أنت ستموت وفي مماتك تحيى " وصادف الأرنب البري القملة في طريقها ووعد بنقل الرسالة غير أنه نسيها وأبلغ البديل الخاطئ لها :" كما أني أموت وفي مماتي أفنى ...الخ ، فضرب القمل غاضبا الأرنب البري على شفته التي ضلت مشقوقة منذ ذلك الحين" ([2]).

إن هذه التفسيرات الأسطورية وغيرها وإن كانت تعبر عن سذاجة العقل وسطحيته إلا أنها دليل على اكتشاف الإنسان لحتمية الموت ، وقد كان له عزاء أمام هذا الفناء وهو الإيمان بفكرة الخلود ذلك:" أن الإنسان البدائي لا يعتقد أن أحدا يموت موتا كاملا ، فالموت بالنسبة له لا يعني بأي حال من الأحوال التوقف الخالص البسيط لأشكال النشاط والوجود كافة ، إنه لا يكون أمرا مطلقا أبدا ، فالميت يحي بينما هو ينتظر البعث " ([3]).

ويقال أن الإنسان البدائي أكد على أن الموت ليس نهاية مطلقة أو دمار، وذلك انطلاقا من بقاء الهيكل العظمي ، إلا أن هذا الأخير لم يكن يعبر عن برهان قوي ...فإمكانية اللادمار أو اللانهاية التي وجدت عند الإنسان البدائي تطورت فيما بعد وتجسدت فيما يسمى بالخلود أو فناء الجسد وبقاء الروح ، وارتبطت أحيانا أخرى بفكرة التناسخ والثواب والعقاب في العالم الآخر .

وسنحاول فيما يلي تقديم عرض موجز حول تطور تصور مفهوم الموت انطلاقا من الحضارات القديمة الفرعونية المصرية والفكر الهندي والفارسي مرورا بالموت في الأديان الكتابية اليهودية والمسيحية والإسلام ،ثم في مهد الحضارة اليونانية في المرحلة ما قبل السقراطية وما بعدها وفي العصر الوسيط والحديث وحتى المعاصر مركزين في هذا كله على أهم المحطات الفكرية الفلسفية والدينية وعلى المفهوم العام للموت في كل مرحلة .

الموت في الفكر الشرقي القديم :

قبل أن يقدم الإنسان الأول أي مجهود فكري أو فلسفي حول العالم فإنه اندهش بالنظام الطبيعي، فحركة الكواكب وتعاقب الفصول الأربعة والليل والنهار...كلها ظواهر شكلت غموضا وخوفا من الطبيعة ، ثم بدأ تدريجيا يفكر ويتساءل حول الكون الذي يعيش فيه وعن مكانته في هذا العالم ([4])، فبنت الحضارات القديمة تصوراتها على أساس غامض ارتبط بالاعتقادات الدينية والمتودولوجية والأسطورية ،وسوف نستهل هذه الدراسة بتقديم لمحة عن الموت عند المصريين.

الموت عند المصريين:

---

[1] - nama hottentots أسطورة منتشرة بين الهوتنتوت وهم شعب يعيش في جنوب إفريقيا ويشبهون البوشمن في اللغة والملامح الجسمية .

[2] - جاك شورون – الموت في الفكر العربي ، المرجع السابق، ص 17

[3] - المرجع السابق ص 23.

[4] - لقد تصورت الحضارات القديمة العالم في شكل كائن حي موجود منذ الأزل يقوم بحركات ونشاطات مختلفة من خلال أعضائه ، وقام بإنشائه وتربيته عقل يسيره .

انشغل حكماء مصر بموضوع تطهير النفس الإنسانية وإعدادها للانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء ، ذلك لأن المصري القديم اعتقد بفكرة الخلود و بوجود حياة بعد الموت ، لأنه لاحظ أن كل ما في الطبيعة يموت .

ولأن الدين([1]) يعبر عن نفوذ أثـر فـي الإنسـانية منـذ وجودهـا وإن اختلفـت طريقة التعبير عنه والتقـديس لـه " ولمـا تكـونت العقائـد ومجموعـة العبـادات الدينية لم يقف الدين فقط عند جمود المواسم والتقاليد ، بل صار يضع المبادئ الأخلاقية في للمجتمع الإنساني القديم"([2]).

وهذا الارتباط بين الدين والأخلاق هو ما ولد مجموعة من الاعتقادات حول الآلهة وحول العالم الآخر عند القدماء، ففكـرة الخلـود والـروح والمـوت خاصـة كان لها حضور قوي ،حيث أن البحوث والدراسات تؤكد أن الكتابات التي وجدت في مقابر الفراعنـة ومعابـدهم دليـل علـىأنه كـانت لـديهم محـاكم للمـوتى ([3]) تحاكم ذكرى الأموات فتسمح بدفنهم في المقابر الدينية أو لا تسمح بذلك وفقـا لما تراه في شأن حياتهم الخلقية "([4]).

فالموت شـكل فكـرة محوريـة عنـد المصـريين وارتبـط بالحيـاة الإنسـانية والثواب والعقاب وعرف على أنه " عبارة عن رقاد في القبر إلى أن تعود الروح فتوقد جسدها الفاني من جديد "([5])، فهو بذلك انفصال للروح عن الجسد ،وأنــه توجد حياتين حياة الإنسان على وجه الأرض وحياة أخرى بعد الموت وهي أقرب للأصل ، كما أنه توجد صلة بين الأحياء والأموات وتأثير روح الميت على الإنسان في حياته " ولقد عاشت في أطوار الاعتقاد المصري عقيـدة الأرواح تمامـا كمـا عاشت فكرة الحياة بعد الموت ، فكان المصريون يلجئـون إلـى اسـتعمال حيـل مقنعة لتزويد جسم الميت بكل وسائل الإحساس المختلفة بعد أن تنفصـل عنـه الروح التي تضم كل هذه الأساسات "([6]).

لقد أثار المصريون القدماء أفكار عديدة حول الموت كانت ولا تـزال تعـبر عن عمق هذه الفكرة وليس هذا فقط لأن الفكر الهندي هو الآخر كـان لـه رأي في ذلك وهو ما سنعرض له في ما يلي

الموت في الفلسفة الهندية :

تساءلت الفلسفة الهندية من جانبها عـن الوجـود وعـن الأرواح وعـن حيـاة الإنسان بعد الموت، وهل الفناء يكون للروح والجسد ما أم يكون للجسد فقط ... وأسئلة كثيرة عبرت عن عمق وتجدر الأفكار الروحية في الوجدان الإنسـاني عامة والهندي خاصة.

---

[1] - الدين وهو مصدر الإيمان ويشتمل على مبادئ الإيمان بوجدانية الله رغم اختلاف الأنبياء والشرائع فهو واحـد، يقـول الشـيخ محمد عبده " الدين دين الله وهو دين واحد في الأولين والآخرين ، لا تختلـف إلا صـوره ومظـاهره ، وأمـا روحـه وحقيقتـه ومـا طولب به المعاملون أجمعون على أسس الأنبياء والرسل فهو لا يتغير " .

[2] - الدكتور محمد مجدي إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مرجع مذكور سابقا ،ص 37.

[3] - يقال أنها محكمة عدله تشبه التي توجد على الأرض يحضر أمامها الأفراد لإصلاح الخطأ فكان لزاما على الشخص المتهم أن يحضر المحكمة في الحياة الآخرة ليثبت براءة نفسه ، كما يروي بعض المؤرخين من ناحية أخرى أن محاكم الموت ليست حقيقية بل أسطورة وجدت عند المؤرخ الإغريقي هيرودوت .

[4] - باسمة كيال ،فاسقة الروح، أصل الإنسان وسر الوجود ، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت،ط 2، ص 31.

[5] - المرجع السابق، ص 31.

[6] - دكتور محمد مجدي إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مرجع مذكور سابقا ،ص 31.

فكانت اعتقاداتهم وفلسفتهم "تقوم على محاور ثلاث الولادة - الحيـاة - الموت ، فلا تصدر الحياة إلا عن طريق الولادة ...و الإنسـان فـي هـذه اللحظـة الأولى لا بد أن يضع فـي اعتبـاره انتهـاء العـالم الآخـر بعـد الممـات "([1])، فهـذه المحاور شكلت لب فلسفة الهند في فهمهـم لفكـرة المـوت ومـا يتصـل بهـا ، وقد كان اهتمامهم مثل المصـريين إلا أن هـؤلاء لـم تكـن عنـدهم فكـرة تناسـخ الأرواح ([2]).

أما تناسخ الأرواح فهـو عـودة الأرواح وتجسـدها فـي أجسـاد أخـرى سـواء جسد إنسان أو حيوان " فبعد مغادرة الروح البدن بالموت ، تعود مرة ثانية إلى عالمها الأول الذي كانت تعيش فيه قبل الموت وهي لا تدري أيـن يكـون حلولهـا في جسم حيوان أم نبات أم إنسان " ([3]).

لكن قد تتخلص الروح الإنسانية مـن هـذا الحلـول فـي الأشـياء أو الأجسـاد الأخرى شريطة انصرافها عن الدنيا والتفكير فـي أوهامهـا وتـدخل بـذلك فـي " النرفانا "([4]) ،فيتخلص من هذه الولادة والموت من جديد وبذلك فـإن " المـوت يعطي للروح جسدا نورانيا ينتقـل إلـى الملأ الأعلـى وأن هـذا الجسـد وإن كـان ماديا في مظهره إلا أنه من طبيعة غير ترابية ، بل أرقى مـن أجسـادنا الفانيـة " ([5]).

بالإضافة إلى ذلك هنـاك فكـرة جديـدة نجـدها فـي الاعتقـاد الهنـدي حـول الموت إذ أعتبر " القوة التي تسبب فـي أن يكـون الواقـع متخيلا ، فمـا يكشـفه الموت وما يمارسه البوذي في أول لقاء له مع المعانات والموت هـو أن الحيـاة والعالم ليس ما نضن أنه إياه " ([6])، فالهند وكية تؤكد أن المـوت والحيـاة همـا متخيلان وهذا لا يعني أنهما غير موجودان ، ذلـك لأن الإنسـان لا يفكـر فيهمـا إلا في اللحظـة الـتي تتملكـه فيهـا الرغبـة فـي البقـاء " أن يكـون شـيئا ليـس هـو بالموجود القائم " ([7]).

فالفلسفة الهندية سلمت بوجود الموت ، أو هذا الانفصال الأبدي ، بمعنى أن الإنسان يجب أن يتغلب أي ينتصر على أن الموت مخيف وليس البحـث عـن حياة أطول .

إن الفكر أو الفلسفة أو الاعتقادات الهندية أوسـع وأكـبر مـن أن تختصـر في بضع سطور ، لكن طبيعة الموضـوع تفـرض علينـا الإشـارة فقـط إلـى أهـم الآراء حول فكرة الموت .

---

[1] - المرجع السابق،ص 47.

[2] - نظرية التناسخ هي انتقال الروح بعد الموت من بدن إلى آخر إنسانا أو حيوان قال بهذه النظرية بعض المفكرين الهنود وفيثاغورس ... وعرفت في العالم الإسلامي ، ونجد الإشارة هنا إلى أن الصوفية الأوائل لم يذهبوا إلى فكرة التناسخ بل أنكروها أشد إنكار كما يقول "على سامي النشار " في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام " ثم أنهم لو كانوا قد قالوا بذلك لواجهوا مهاجمة كبيرة من طرف العلماء المسامين ".

[3] - المرجع السابق ص 52.

[4] - لقد تحدث بوذا عن ال (نرفانا) التى معناها بالسنسكريتية (منطفيء - كما ينطفيء المصباح) أو ما يقصد به بالسكينة العليا التى لا عودة بعدها إلى حياة جديدة على الارض (للتعذب) - وبالعربية يمكننا قراءتها (نور - فناء) (نر - فنا) - اللفظ المطابق تماما لما قصده بوذا ب (النرفانا).

[5] - باسمة كيال – فلسفة الروح ، أصل الإنسان وسر الوجود، مذكور سابقا ، ص 45 .

[6] - جيمس ب ، كارس الموت والوجود دراسات لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا ، ص 192 .

[7] - المرجع السابق ص 210 .

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نهمل الحضور الهندي في الفلسفة الإسلامية وخاصة في التصوف " ويعتقد الصوفي كما يعتقد الهندوسي نظاما صارما من التطهير يكون ضروب من الثقافي في الطاعات والتأمل والنظر والتدبر والصلاة " ([1]).

بالإضافة إلى ذلك يمكن أن نشير إلى قصة " إبراهيم بن آدهم " ([2]) " فالنظرة الفاحصة إلى سيرته توضح أنها نسخة من " غوتاما بوذا " ([3])، و"يحتمل أن هذه القصة قد دخلت الدوائر الإسلامية في أوائل العصر العباسي " ([4])، فحياة هذا الولي وانصرافه إلى الزهد لا شك أنه أثر بشكل أو بآخر في المسلمين أو كان تفسيرا عن دخول الأفكار الهندية إلى العرب .

وغرضنا من هذه الإشارة هو تبيان علاقة الفكر الهندي بالتصوف الإسلامي خاصة ، والعالمي عامة ، وهذا التأثير على التصوف لم يكن من طرف الفلسفة الهندية فقط ، وإنما الديانة الفارسية هي الأخرى كان لها موقف من الموت وتأثير على الفكر العالمي فكيف تنظر الفارسية إلى الموت ؟ .

الموت في الديانة الفارسية :

قد تختلف المعتقدات الفارسية حول الموت عن المصريين والهنود لكنها في الحقيقة كلها تعتبر عن الموت من منطق واحد وهو أن الموت قد أثار انشغالهم وقلقهم .

فالإنسان كما يقول أحمد أمين : " في الحكمة الزرادشتية له حياتان حياة أولى في الدنيا وحياة أخرى بعد الموت ، ونصيبه في حياته الآخرة نتيجة لأعماله في حياته الأولى وقد أحصيت أعماله في كتاب وعدت سيئاته ديونا عليه في الأيام الثلاث التي تعقب الموت ،و تخلف نفس الإنسان فوق جسده وتنعم أو تشقى تبعا لأعماله "([5]).

فهذه إشارة واضحة إلى أن الروح يكون لها مصير بعد الموت ويرتبط هذا المصير بفكرة الخير والشر ، والجزاء يكون من منطلق وجود الإنسان وعمله في الحياة "فإذا مات الميت تضل الروح ثلاث أيام وثلاث ليال متعلقة إلى جانب الجسم ، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح معطرة إذا كانت روح الميت خيرة وإما نتنة إذا كان الميت شريرا "([6]).

---

[1] - ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران –،المجلد 4 طبعة الإدارة الثقافية لجامعة بيروت –،بدون تاريخ ،ص 216 .

[2] - هو إسحاق بن إبراهيم بن أدهم " توفي بين عامي 716-783 وكان هذا الولي زاهدا شهيرا من نوع لم يكن منتشرا بين المسلمين الأوائل ، وقد مات خلال حملة بحرية ضد القسطنطينية ويروى أنه كان أميرا من أمراء بلخ ، اتجه إلى عبادة الله أثناء انشغاله بالصيد ، فترك بعد ذلك أمور الدنيا ومتاعها مستجيبا لدواعي ربه..

[3] - غوتاما بوذا Buddha يتفق على أن تاريخ حياته هو (563-483) اسمه العائلي سدهارات جوتاما sidd harta goutama بلغ مرحلة الإستنارة وسمي بوذا أو الواحد المستنير يقال أنه تعرض بالمصادقة لمظاهر الشيخوخة والمرض والموت فتأكد أن الحياة عارضة فأتجه إلى الزهد والعبادة .

[4] - أوليري ، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ترجمه إلى العربية ، دكتور تمام حسين ، ملتزم الطبع والنشر المكتبة الأنجلو مصرية ن بدون ط/ت. ص 198. مذكور سابقا

[5] - أحمد أمين ، فجر الإسلام ، مكتبة نهضة مصر ، ص 102 .

[6] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 67.

فالديانة الفارسية كان لها اهتمام كبير بفكرة الموت وخاصة الحياة الأخروية، ومصير الروح بعد الموت وارتبط كل ذلك بفكرتي الخير والشر.

على أننا سوف نشهد تطورا لفكرة الموت في الفلسفة اليونانية، وان كانت الحضارات الشرقية قد ارتبطت بمفاهيم محدودة عبرت عن طبيعة تفكيرها فان الفلسفة اليونانية ما قبل السقراطية أعطت رؤية جديدة مشابهة في بعض جوانبها للفكر اليوناني و مخالفة له في جوانب أخرى ،وهو ما سنعرفه من خلال عرضنا لتصورات الفلاسفة اليونان.

الموت في الفلسفة ما قبل السقراطية :

يعبر " أخيل"([1]) عن وجهة النظر السائدة بقوله : " أناشدك يا اوديسيوى الشهير أن لا تتحدث عن الموت برفق فلأن تعيش على الأرض عبدا لآخر ... خير من أن تحكم كملك لا ينازعه السلطان أحد في مملكة الأشباح اللاجسدية " ([2]).

لأن هذه المقولة تعبر بحق عن معنى الموت في الفكر اليوناني وخاصة الديانة الهوميروسية الرسمية ، فكان الموت يعتبر بالنسبة لها شرا ومصدرا للخوف وأنه انتقال إلى الجحيم حيث " كان من المعتقد أن الموتى يصبحون أشباحا لا تدب الدماء في عروقها ، تهيم ضائعة في العالم السفلي الذي كان أكثر هولا من أي شيء معروف على سطح الأرض "([3]).

لكن في مقابل هذا الاعتقاد اللاهوتي الرهيب ظهر اعتقاد آخر ارتبط بالموقف البطولي عند اليونان ، لأن البطل يقدم حياته لخدمة الوطن متحملا في ذلك مصيره الذي سيكون الموت من جهة والرضا من جهة أخرى، وهي التي يقوم البطل في غمارها بالاستغناء عن حياته في عمل رائع من أعمال

---

[1]- **Acheles أحد الأبطال الأسطوريين في الميثولوجيا الإغريقية، كان له دور كبير في حرب طروادة ، والتي دارت أحداثها بين الإغريق و أهل طروادة. يروي هوميروس بعض الأحداث من قصة أخيل في الإلياذة.** حسب الأسطورة، كان أخيل ابنا لـ"بيلوس"، ملك ميرميدون، أمه "ثيتس" كانت من الحوريات. وحسب الكتابات الإغريقية القديمة، وحتى يصبح من الخالدين (غير الهالكين)، قامت أمه بغمره في مياه نهر سيتكس، إلا أنها وحين غمرته كانت ممسكة بعقبه من الوتر ، فكان هذا المكان الوحيد في جسمه الذي لم يغمره الماء، وأصبح ذلك نقطة ضعفه. تنبأ أحد العرافين للملك وزوجته أن ابنهما سيقتل في معركة طروادة. حاول بيلوس وزوجته أن يخفيا أخيل، ألبساه ثياب الفتيات، ثم أرسلاه إلى لوكوميدس، ملك جزيرة سيكاروس، ليعيش معه في قصره كأحدى بناته. قامت الحرب بين أهل طروادة والإغريق، و فشل الإغريق أول الأمر في أخذ المدينة، ولما علموا بأن أخيل هو الذي سيحقق لهم النصر حسب نبوءة أحد الكهنة، قاموا بالبحث عنه حتى وجدوه. واستطاع الداهية أوديسيوس أن يعثر على أخيل وعرض عليه الأسلحة والخيول فتحرك نفس أخيل لها، وانضم إلى جيش الإغريق. استطاع أخيل أن يحقق انتصارات باهرة لجيش أجاممنون طوال تسع سنوات من الحرب الضروس. بعد إحدى المعارك، وضع أجاممنون يده على كريسيس بنت ملك طروادة، ورفض أن يعيدها لوالدها. احتدم الخلاف بينه وبين أخيل. قام أخيل باعتزال الحرب، ثم بدأت الهزائم تتوالى على جيش الإغريق.

عندما رأى باتركلس (صديق أخيل) هزائم قومه، حاول أن يدفع أخيل للقتال مرة أخرى، ولكن أخيل رفض ذلك، فطلب باتركلس من صديقه أن يعطيه سلاحه ومركبته حتى يرعب بها الأعداء فوافق أخيل على ذلك. وفي المعركة قام هيكتور ابن ملك طروادة بقتل باتروكس ظانا أنه قتل أخيل نفسه. ولما علم أخيل بقتل أعز أصدقائه صمم على الانتقام من هيكتور. استطاع أن يلحق الهزيمة بالطرواديين وأن يقتل هيكتور. إلا أنه وفي النهاية قام باريس أخو هيكتور بتصويب سهمه نحو وتر أخيل فمزقه فسقط أرضا، ثم تمكن باريس من أن يجهز عليه يستعمل لفظ وتر أخيل في الثقافة والآداب الأوروبية للكناية عن نقطة الضعف في الشخص المعين، فإذا ضرب أو قطع وتر أخيل، فقد أصيب ذلك الشخص في أضعف نقطة من جسده.

[2] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي، مذكور سابقا ، ص 36 .

[3] - المرجع السابق ، ص 36.

البطولة فأصبح الموت بذلك تمام واكتمال خاصة عند رجال التراجيديات اليونانية هوميروس ومعنى هذا على أية حال امتلاك واستغناء، والنتيجة المترتبة عليه هي بوجه ما من الوجوه نوع من الفيض أو الخصب أو الثراء " ([1]).

وعلى خلاف هذه الأفكار والاعتقادات السابقة على التفكير الفلسفي الحقيقي ستظهر أفكار جديدة أكثر تجديدا نجدها عند الفلاسفة الذريين والطبيعيون ، لكن قبل ذلك تجدر بنا الإشارة إلى الديانة الأرفية ([2]) ، هذه الأخيرة التي كان لها تأثير كبير على القيثاغورية و «سقراط» ومن بعده أفلاطون ، بالإضافة إلى أنها تشكل همزة وصل بين الحضارة الشرقية والحضارة اليونانية ، والأهم من هذا كله أنها شكلت نزعة صوفية ، فهذه الديانة الرسمية كان لها تأثير على المعتقدات السائدة في الفكر اليوناني من خلال فكرة التناسخ والاعتقاد بالحياة الأخروية أو بالموت بشكل خاص .

وبما أن فيثاغورس (572-497 ق م) كان من أكبر المتأثرين بهذه الديانة السرية فإن فهمه للموت كان انطلاقا من مبادئها، فالإنسان يمر بعجلة التناسخ ، وفي كل مرة ينتقل فيها إلى جسد جديد فإن الروح تصبح أكثر نقاءا ، وبذلك تقترب من المرحلة النهائية وهي مرحلة الألوهية وهو " ما يشير إلى عملية التطهير من دولاب الولادات، تطهير الروح قبل أن تغادر الأجساد فإذا مات الإنسان ولم يتطهر بالنظام المفروض على المنهج الفيثاغوري المطلوب ، فقد يظلم روحه ويهبط مرتدا عن درجة التقرب والتوحد مع الله " ([3]).

وفي مقابل فيثاغورس وفكرة التناسخ نجد "أنكسماندر" (610-574 ق م) الذي ينطلق من فكرة خاصية الفناء التي تتميز بها الأشياء حيث يقول في إحدى شذراته :" إن الأشياء تفنى وتنحل إلى الأصول التي نشأت عنها ، وفقا لما جرى به القضاء ، وذلك أن بعضها يعوض بعضا وتدفع جزاء الظلم وفقا لما يقتضي به الزمان " ([4]) فهذه الشذرة تعبر عن إشارة إلى فناء الأشياء ومن ثمة فناء الإنسان بالموت وهو دليل على أن أنكسماندر " قد أثرت فيه الواقعة الرهيبة ، المتمثلة في فناء الأشياء ، وقد يمثل قوله أن الأشياء تفنى فتتحول إلى ما نشأت عنه تعبيرا عن الأمل في أنه في مكان ما وبكيفية ما لن يحض الموت بالسيادة " ([5]).

كما أن هذه الخاصية الطبيعية الزائلة التي تتميز بها الأشياء لا نجدها فقط عند "أنكسماندر"، وإنما نجدها عند فيلسوف التغير والأضداد " هيرقليطس " (533-475 ق م) ، هذا الأخير الذي يرى أن كل شيء يخضع للتغيير والتحول وأن البقاء والثبات غير موجودان حيث يقول "نحن ننزل

---

[1] - زكرياء إبراهيم ، مشكلة الإنسان ، مكتبة مصر ، القاهرة،بدون ط/ت، ص 130 .

[2] - الأرفية ORPHISME إحدى الديانات السرية التي جاءت من الشرق وانتشرت في بلاد الإغريق ، وكانت تؤمن بفكرة تناسخ الأرواح ، حيث ترى هذه الديانة أن النفس كانت في مكان قدسي قبل أن تكون في البدن وبعد ارتكابها للخطيئة عوقبت ونزلت من السماء إلى الأرض ثم حلت في سلسلة الأجساد .

[3] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكورسابقا ،ص 118 .

[4] -- جاك شورون ،الموت في الفكر الغربي، مذكورسابقا،ص 38

[5] - المرجع السابق ،ص 39.

في النهر الواحد ولا ننزل فيه ، فما من إنسان ينزل فـي النهـر الواحـد مرتيـن ، فهو دائم التدفق والجريان " ([1]).

فهذه الخاصية الأساسية عند"هيرقليطس" جسدها علـى فكـرة المـوت ، فأصبح بذلك ضدا للحياة لأن هـذه الأخيـرة متغيـرة وغيـر ثابتـة ونفـس الشـيء يصدق على الموت " لأن روح الإنسان هي جزء من النـار الخالـدة الـتي تتحـول لكنها تبقى إلى الأبـد ... ويـؤدي التبـادل بيـن عمليـتي الرطوبـة والجفـاف إلـى التبديل في إقاع الحياة بين النوم واليقظة وبين الحياة والموت "([2]).

فالموت عند " هيرقليطس " يخضع لحتمية التغير وهو لا يعني تغير الحيـاة إلى الموت فقط وإنما تولد الموت من الحياة بخضوعها للتغير فكل مـا بـداخلنا شيء واحد حياة أو موت ، يقضـه و نـوم ، شـباب وشـيخوخة وكـل ضـد منهمـا يتحول إلى الآخر ، والفانون خالدون والخالدون فـانون فأحـدهم يعيـش بمـوت الآخر ويموت بحياة الآخر "([3]).

ومن خلال هذا نصل إلى فكرة أساسية عند " هيرقليطس " وهـي أن كـل شيء خاضع للتغير ولجدلية الأضداد وأن الموت لا يمكن أن تكـون لـه نهايـة أو أنه دمار ، وهذه الفكرة الأخيرة -أي إنكار الدمار الشامل – هو بالتجديد ما اتفق فيه كل من " هرقليطس " وضده "بارمنيـدس " الـذي يرفـض التغيـر فهـو فـي نظره" ليس سوى ضـربا مـن ضـروب الـوهم أو الضـن وإذا كـان التغيـر وهمـا وكانت الكثرة ضنا ، فإن الموت وهـم كـذلك لأنـه أكـثر ضـروب التغيـر والتكـثر والاستحالة" ([4]).

وفي مقابل هـذه الرؤيـة السـابقة نجـد موقـف أمبـادقليس (435-495) الذي تأثر هو الآخر بفكرة التناسخ وما الموت عنده إلا :" انحلال العناصر الأربعة فـي الكـائن الحـي " ،ولأن ظـاهرة الانحلال الـتي كـانت تتمثـل فـي العناصـر المشكلة والمكونة للكائن الحي هي فكرة أساسية عند "أمبادقليس" فإنه فسر الموت انطلاقا من هذه الفكرة.

وهناك أيضا " أناكسـاجوراس " (500- 428) الـذي يقـول فـي إحـدى شذراته :" إن اليونانيين يفترضون خطأ وجود صدور و دمار لأنـه مـا مـن شـيء يصدر وما من شيء يدمر ، فكل شيء خليط وغير خليـط مـن الأشـياء السـابقة الوجود ومن ثم فـإنه لا صـوب أن نسـمي إحـدى العمليـتين الـتركيب والعمليـة الأخرى التفكيك" ([5])، من هذا القول يمكن أن نفهم موقـف" أنـا كسـاجوراس" من الموت والذي يعتبره تحللا كاملا .

ومن هذا النقطة بالذات يؤكد ديمقريطس (460-370) على فكـرة فنـاء الروح " حيث أن الذرات الدقيقة أو اللطيفة التي تتألف منها الروح تتبـدد فيمـا يقول عند الموت "([6]).

---

[1] - ولترستيس، ، تاريخ الفلسفة اليونانية، مذكور سابقا، ص 58.

[2] - جاك شورون ،الموت في الفكر الغربي، مذكورسابقا ، ص 40.

[3] - يوسف كرم ،تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكورسابقا، ص 18 .

[4] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا، ص 119 .

[5] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ، مذكور سابقا ، ص 45.

[6] - المرجع السابق ، ص 45.

وفي هذا إشارة إلى أن الموت ضروري وأنه سوف تأتي لحظة وتنتهي فيها الحياة ، ويكون ذلك بالموت ، فعلى الإنسان إذا أن يبحث عن السعادة ويعيشها في حياته، أما النفس عنده فهي مادية مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة ، وهي مبدأ الحركة في الأجسام الحية ، ومادامت حاصلة كلها في البدن دام الشعور ، فإذا ما فقد بعضها كان النوم واللاشعور ، وإذا فقد معظمها كان الموت الظاهر ، وإذا فقدت جميعا كان الموت الحقيقي أي فناء الشخص "([1]).

يمكن أن نقول من خلال هذه الآراء الخاصة بالفلاسفة السابقين على «سقراط» أن كل ذلك يعبر عن مواقف وتفسيرات للموت من منطلقات معينة ، وقد ارتبطت بعض هذه التفسيرات بما هو لاهوتي أو بما هو ميتافيزيقي أو بالديانة الأورفية ،وبعضها الآخر اعتبر الموت ضروريا وأكد فناء الروح ، في حين هناك من أخضع الموت لجدلية الأضداد والتغيير ... لكن في كل الأحوال يعبر الفكر أو الفلسفة السابقة على «سقراط» عن الاهتمام الكبير بفكرة الموت وعمقها في الوجدان الإنساني ، وهذا كله شكل للفلسفة في ذلك الحين أرضية جديدة انطلقت منها .

وهو ما يتجسد بشكل واضح في مرحلة سقراط وما بعده...

الموت في فلسفة افلاطون و أرسطو:

الموت عند أفلاطون :

من المؤكد أن موت«سقراط» **([2])** قد أثر في أفلاطون ومن ثمة في أفكاره وفلسفته، وخاصة في تحديد موقفه من الموت ، فالخطاب الفلسفي الأفلاطوني يتجه دائما إلى ما يسمى "بنظرية المثل" ([3]) أو "عالم الأفكار"

---

[1] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 120 .

[2]- ولأن «سقراط» هو موضوع دراستنا فإننا سنترك التفصيل في ذلك في الفصول اللاحقة وسندخل مباشرة في موقف "أفلاطون".

[3] - هي نظرية موضوعية المفاهيم وتقوم على أن المفهوم ليس مجرد فكرة في العقل بل هو شيء له حقيقته الخاصة به

وما من شك أن فهمه للموت أو الخلود خاصة وطبيعة النفس كان يستند إلى هذه النظرية" ([1]).

فأفلاطون اعتبر النفس جوهرا خالدا متعاليا لا يمكن معرفة حقيقته لأن هذه الأخيرة ليست في متناولنا ، وهي وإن كانت قد وجدت في العالم بسبب الخطيئة فإن عليها أن تعمل على التخلص من هذا العالم للعودة إلى مكانها الأصلي وذلك لا يتم إلا بالتطهير ([2]). فاعتبر الموت انطلاقا من ذلك سبيلا للخلاص وسعيا إلى المعرفة، وهو لا يمثل خوفا أو حزنا وإنما " الفيلسوف الحق يسعى إلى الموت والاقتضاء دوما ، لأنه يسعى وراء الحقيقة ، وحيث أن الجسد عائق لتحقيق المعرفة لأن حواسنا تشوش رأيتنا العقلية ... فإن بلوغ المعرفة الحقة يغدو ممكنا فحسب حينما نتحرر من أغلال الجسم وهذا هو الموت " ([3]).

وقد صاغ أفلاطون براهين عدة على خلود النفس من بينها برهان الضدين الذي توجد فيه إشارة واضحة إلى الموت وهو يؤكد على أن كل ضد يولد من ضده([4]) ، وكل واحد منهما يكون في اتجاه مخالف عن الآخر وهو ما يصدق على فكرة الموت ، فالحياة تولد من الموت والموت يولد من الحياة وهو يشبه علاقة الحياة بالموت بالنوم واليقظة حيث أن " النفوس تكون حية في مكان خاص حتى تمنح الحياة ولاستقرار المرء في نومه إلى ما لا نهاية له ،فهذا دليل على أن نفوس الموتى مصدر لنفوس الأحياء " ([5]).

إن "أفلاطون" ربط الموت بالمعرفة والتذكر وأن مهمة الفلسفة والفيلسوف هو التفكير والتأمل في الموت ، ويبدو أن أراء " أفلاطون " حول الموت كانت تقترب إلى حد كبير من آراء أستاذه " «سقراط» وهي أفكار تختلف عن أفكار " أرسطو" حول الموت .

الموت عند " أرسطو":

---

[1] - يربط أفلاطون مذهب خلود النفس العقلانية بنظرية المثل عن طريق آرائه في التذكر والتناسخ ، وبالنسبة لرأيه في التذكر فإن المعرفة كلها هي استعادة وتذكر لما عاشته النفس في حالة اللاتجسد قبل الميلاد .

[2] - التطهير حسب أفلاطون يتحقق من خلال الحكمة والمعرفة التي تكون كإلهام أو فيض إلهي .

[3] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ، مذكور سابقا ، ص 55.

[4] -فكرة الأضداد نجدها مجسدة بشكل واضح في محاورة فيدون والتي يبرهن من خلالها سقراط على خلود الروح، وسوف نتطرق لذلك في الفصل الثاني.

[5] - محمود قاسم ، في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام ، ملتزمة للطبع والنشر ، المكتبة الأنجلو مصرية ،ط 2 بدون سنة ، ص 54.

على عكس " أفلاطون " نجد " أرسطو" انطلق في تفسيره للموت من الطبيعة الإنسانية ولو أنه قد اتفق مع " أفلاطون " في بداية الأمر ، ولكنه ما لبث أن شكل لنفسه نسقا خاصا ، فأكد بأن" القول بتناسخ الأرواح هو مجرد أسطورة، والخلود يكون للعقل وليس للنفس وإذا كانت النفس تتخلص من الجسد عند الموت حسب أفلاطون فإن العقل عند "أرسطو" يتخلص من وضعه عند الموت،و يطلق سراح الذهن من أوضاعه الراهنة"([1]).

" فأرسطو" في تعريفه للموت ينطلق من نظريته البارزة في فلسفته وهي تلك التي تتعلق بالصورة والمادة ([2])، فالنفس في تصوره لا تنفصل عن الجسم لأنها بمثابة صورة له ، وعند الموت كل شيء يفنى ماعدا " العقل الفعال "([3]) " فكل الملكات تتلاشى مع الجسم بما في ذلك " العقل المنفعل "([4])، أما العقل الفعال فهو خالد ولا يفنى فهو ليس له بداية ولا نهاية وهو يأتي للجسم من الخارج ، ويفارقه عند الموت "([5])، ومنه يمكن أن نقول بأن" النفس الخالدة عند أرسطو هي الفكر المحض " ([6]).

وبالإضافة " أرسطو" نجد أن " الإبقورية " و " الرواقية " كان لهما موقف حول الموت يمكن تلخيصه فيما يلي :

الموت عند الإبقورية :

تعبر الإبقورية عن موقف جديد ومختلف حول الموت ارتبط فيما هو معروف عن مذهبهم باللذة وتحقيق السعادة ، والقضاء على الخوف من الموت ، هذا الأخير الذي لا يعتبر بالنسبة لهم شرا لأن النفس لا تتنبأ بحياة مستقبلية ، وهي مؤلفة من مجموعة من الذرات التي تنحل عند الموت ، هذا الأخير الذي لا يكون الإنسان موجودا عند حدوثه فلا يحس بألمه ولا يعرف ما بعد ذلك " وعندما يأتي الموت فلا نشعر به ، أليس هو نهاية كل شعور وكل وعي ؟ وليس هناك سبب يدعونا للخوف الآن من ما لا نشعر به عندما يأتي " ([7]).

إذا الموت هو مجرد تحلل للذرات وهذا التحلل هو شيء طبيعي بالنسبة للمادة " فعامل الموت هو ببساطة التشتت الذي لا مفر منه للذرات ، وعامل الموت ليس شيئا خارجيا عن المادة يوجهها في هذا الاتجاه أو ذلك ولكنه هو نفس طبيعة المادة ذاتها " ([8]) فالموت بذلك هو حادث لا يمكن تجنبه أو التنبؤ به، فعلى المرء أن لا يخاف منه أو يعتبره مصدرا للشر ، وذلك لأن وجوده يتنافى مع وجود الموت ، فإما أن يكون ويشعر بحياته ووجوده ، وإما يفقد هذه

---

[1] - جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، مذكور سابقا، ص 60 61 .

[2] - نظرية الصورة والمادة : هي نظرية تقوم على التفرقة بين المادة والصورة ، وتعتبر المادة في صورة نسبية ، لأنها تتحول إلى شكل أو شيء آخر ، كالخشب هو مادة يمكن أن تكون مقعدا أو مائدة مثلا ، الأمر الذي يستدعي وجود عنصر يحدد خصائص وطبيعة هذه المادة وهذا ما يطلق عليه أرسطو اسم الصورة .

[3] - العقل الفعال يمثل الفاعلية الإيجابية للفكر ويكون مستقلا عن الذاكرة بشكله المجرد .

[4] - العقل المنفعل : وهو العقل الذي تكون له قوة التفكير قبل أن يفكر بالفعل ، وهو سلبي ومرتبط بالذاكرة .

[5] - ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا، ، ص 195 .

[6] - باسمة كيال ، أصل الإنسان وسر الوجود ،مذكور سابقا ، ص 95 .

[7] - ولتر ستيس ،تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ص .229 .

[8] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود , دراسات لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي , مذكور سابقا , ص 52 .

الحياة وهذا الشعور بالموت ،فلا يمكن إذا حسب" أبقور" أن نخاف من شيء لا يمكن أن نحس به أو نعرف زمان حدوثه .

فموقف " الأبقورية " يمكن أن نلخصه في قول" أبقور ": " ليس للموت وجود بالقياس إلينا لأنه طالما كنا أحياء فليس ثمة موت ، وبمجرد ما يوجد الموت فإننا لن نكون أحياء "([1]).

الموت عند الرواقية :

بالرغم من أن " الرواقية "([2]) " والأبقورية " نشأتا في وقت واحد إلا أنه كان لكل منهما فكر خاص أو فلسفة متميزة .

فالرواقية واصلت على موقف " هيرقليطس " القائل بأن النار تمثل الأصل المادي والروحي في آن واحد، هذه الفكرة الأخيرة أسقطتها على النفس واعتبرها جزء من النار الإلهية " غير أن نفس كل فرد لا تأتي من الله مباشرة ، فالنار الإلهية انبثقت في الإنسان الأول ومن بعد هذا تنطلق من الوالد إلى الطفل في فعل الإنجاب ، وبعد الموت تستمر النفوس في الوجود الفردي حتى الحريق العام حيث تعود هي والأشياء الأخرى إلى الله "([3]) .

وقد اعتبر الموت المشكلة المحورية عند الرواقية فهو " ينتمي إلى النظام الكوني للأشياء تماما كالميلاد، وبقدر ما هو قانون شامل قابل للتطبيق على كافة الكائنات الحية ، فإنه كذلك موافق للطبيعة ، وبالتالي فإنه قانون عادل " ([4]).

إن " الرواقيين " يحاولون أن يثبتوا واقعية الموت وحدوثه وذلك محاولة منهم للتخلص من الخوف منه ، ونجد هذه الفكرة مجسدة بشكل واضح عند " سنكا " الذي كان دائما يتساءل كيف يموت ، وكيف يتمكن من التخلص من هذه الفكرة التي قد تؤثر على حياته ، فأدرك أنه يجب أن نحاول تجاوز فكرة الخوف من الموت حيث يقول : " من لا يملك إرادة الموت لا يملك إرادة الحياة ، فقد منحت لنا الحياة فحسب شريطة أن نلاقي الموت ، وهي تتحرك باتجاه الموت ، ومن هنا فإنه من الحماقة أن يرهبنا الموت " .

إذن هي" نزعة أخلاقية ودعوة إلى ضبط الانفعالات والقلق والخوف من هذا " القانون العادل " كما يعتبرونه" ([5]).

إن هذه الآراء السابقة هي اصدق تعبير على مدى انشغال الإنسان بفكرة الموت ، ومع ذلك سوف نشهد إمتدادات لهذا التفكير في التأملات الفلسفية والدينية اللاحقة ، سنبدأها أولا بالموت في الديانات الكتابية .

---

[1] - زكريا إبراهيم , مشكلة الإنسان , مذكور سابقا , ص 149 .

[2] - ترجع الرواقية إلى زيتون الكيتوني ، أساسها في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد والرواقية كلمة مشتقة من الرواق كان زينون يعلم فيه في أثينا , عرف الرواقيون الفلسفة " بمحبة الحكمة ومزاولتها " أما الحكمة فهي علم الأشياء الإلهية والإنسانية , عدا العلم الذي ينقسم إلى منطق (الجدل والخطابة) والأخلاق والطبيعة وتشمل اللاهوت , والرواقية في الأصل مذهب في الأخلاق يهيئ له علم الطبيعة أساسه الذي يقوم عليه .

[3] - ولتر ستيس , تاريخ الفلسفة اليونانية , مذكور سابقا , ص 222 .

[4] - جاك شورون , الموت في الفكر الغربي , مذكور سابقا , ص 72 .

[5] - , المرجع السابق , ص 76 .

الموت في الأديان الكتابية :

لما كان العقل الإنساني عاجزا عن إقناع ذاته وغيره في الكثير من الأحيان وعن حل الكثير من المشكلات التي حيرته وولدت لديه خوفا وشكا وغموضا ، كمشكلة الموت فإنه كان لا بد من وجود مصدر آخر أقوى وأكثر إقناعا تجسد في الإيمان ، هذا الأخير الذي استطاع أن يتجاوز العقل متمثلا في الدين .

والدين سواء كان اليهودية أو المسيحية أو الإسلام هو شكل في كل حال من الأحوال من أشكال السلطة ، أو نفوذ على العقل في حد ذاته أجبره على الاقتناع والإيمان ، ليس في فكرة الموت فقط وإنما في جميع ما حيره وأثار فضوله وقلقه .

وكل الديانات الكتابية تناولت فكرة الموت و الحياة الأخروية ، واتفقت على واقعية البعث والحساب ووحدانية الله وإن اختلفت في طريقة تصويرها و تمثيلها لهذه الأصول ، وسوف نستهل دراستنا بالديانة اليهودية .

الموت عند اليهودية :

إن اليهودية كنموذج أول تعتبر من أعمق وأقدم الديانات الإنسانية التي كان ولا يزال لها تأثير كبير نظرا لما تحتويه من أفكار ووحي إلهي وتناقضات في بعض الأحيان نتيجة التحريف الذي تعرضت له .

أما فيما يخص حضور فكرة الموت والعالم الآخر فهي " بعض الشذرات والمتفرقات لا يمكن الحكم من خلالها على أن اليهودية قدمت لنا مفهوما للموت والعالم الآخر ، أو تصورا لمصير الإنسان بعد الممات ، كما نجده مصورا في أرقى الأديان الكتابية ويعني به ديانة الإسلام "([1]).

إلا أنه هناك ما يمكن إدراجه في هذا المجال وهو أن الموت ارتبط بالخطيئة كما سنجده عند المسيحية ، لكن ليس تعبيرا عن العقاب وحده وإنما بالإضافة إلى ذلك هو تمييز بين ما هو إلهي وما هو إنساني ومعرفة للخير والشر ، ويتجسد ذلك من خلال رؤية اليهودية لقصة الخلق وتفسيرها لها، فالخطيئة التي ارتكبها الإنسان الأول لم يحصل من خلالها على الخلود وحكم عليه بالفناء أو الموت، ولكنه بعد ذلك حصل على المعرفة بأن الله نفذ وعده اتجاههما من خلال الحكم عليهما بالموت ، " ومن الواضح أن الربط لم يقم بأي إجراء

[1] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ،مذكور سابقا ،ص 145.

واضح لمحو هذه المعرفة فيسمح لهما أن يعيشا إلى الأبد بلا وعي في ظلام الجهالة ... وكان لقرار الربط هذا نتيجتان خطيرتان : أولهما أن الفناء أو الموت وإن كان عقاب ، إلا أن الأهم أنه يجب أن يفهم على أنه الحقيقة التي لا تنحل ولا ترفع من الوجود الإنساني ...أما الثانية فهي أننا ما زلنا نمتلك معرفة الخير والشر " [1].لذلك تؤكد اليهودية على أن الموت ليس عقابا عندما يكون الإنسان كذات عادية ، لكنه إذا تجاوز هذه الإنسانية إلى الحدود الإلهية فإنه يتحول إلى عقاب ، فالموت ليس مأساة إنسانية أو " ليس عقابا فرضته أهواء إلهية منتقمة أو شريرة على الجنس البشري بأكمله ولكنه واحد من الخصائص الجوهرية للإنسانية"[2].

إذ ا فكرة الموت عند اليهود ارتبطت بالشعور بالرب وبمركزيته وذلك سعيا للاتصال به، ومعرفة قيمته في الحياة ولا حاجة لهم بالحياة الأخرى أو بالجنة " فعندما ينظر اليهود إلى الموت فإنهم يرون الحياة وعندما ينظرون إلى الحياة فإنهم يرون الرب ، والرب الذي يرونه هو المصدر المباشر لكل ما هم عليه ولكل ما يعملون " [3].

---

[1] - جمس .ب كارس -،الموت والوجود دراسات لتصورات الفناء الإنساني والتراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا ،ص 223 .

[2] - المرجع السابق ، ص 226 .

[3] - المرجع السابق ، ص 237 .

الموت في المسيحية :

أما الدراسات حول المسيحية فإنها تؤكد بأن يسوع ([1]) لم يكن يهتم بأمور الموت ، واعتبر أن الحياة الدنيوية هي التي يجب على الإنسان أن يهتم بها ويفكر فيها ، وأن يترك الغموض والأمور المبهمة والتأمل في تصورات لا جدوى منها ، وبذلك فقد كان :" يسوع يهتم بأمور الحياة وليس الموت ويذكرنا هذا بما وجهه إلى أحد تلامذته، الذي عبر عن رغبته في أن يتبع يسوع ولكن بعد أن يدفن أبيه الذي مات حديثا فقد أجابه :" أتبعني ودع الموتى يدفنون موتاهم " ([2]).

إن هذا القول الأخير يؤكد على أن رسالة يسوع كانت تتجه إلى أمور الحياة أما الموت فلا يمكن أن يكون محل اهتمام وتفكير، لكن هذا لا يعني أن المسيحية لم تكن على معرفة به ، وإنما صرفته على مجال التفكير.

" فالموت لم يكن يوصف بأنه شر أو قدر غير عادل أو تشوه للطبيعة ، ولا حتى فاجعة إنسانية ، والأهم من كل هذا أنه لم يكن ينظر إليه على أنه مضاد للحياة " ([3])، لذلك ارتبط الموت عند المسيحية بمدى مواجهة الإنسان للحياة

---

[1] - يسوع من الصيغة العربية للأسم العبري يشوع ومعنى الاسم هو يهود ومخلص ، ولهذا يقال يسوع المخلص وهو إسم الشخص ، أما المسيح فهو لقبه وقد وردت عبارة " الرب يسوع المسيح " خمسون مرة في العهد الجديد .

[2] - المرجع السابق،ص 288.

[3] - الم لا يستطيع المرء الا ان يتصور موسى وهو يحدق في العليقة لبعض الوقت. لا بد انه كان في حيرة. ما الذي يحدث هنا؟ الن تكون زوجته مسرورة اذا سمعت عن هذا الامر. حطب يحترق ولكنه لا يستهلك، وسوف يكون وقودا رائعا لموقد مطبخها: فقال موسى اميل وانظر هذا المنظر العظيم. ما بال العليقة لا تحترق. ورأى الرب انه قد مال لينظر، فناداه الله من وسط العليقة وقال موسى، موسى..

سفر الخروج *3: 3، 4*

ولا شيء اغرب من شجرة تتكلم! يستطيع المرء ان يتخيل موسى ينظر حوله وهو يتصبب عرقا، ويأمل بأن لا يكون هناك من يستمع. كيف سيبدو وهو يتحدث مع عليقة؟!

وقال موسى :هاءنذا

قال : لا تدن الى ههنا، اخلع نعليك من رجليك، فان الموضع الذي انت قائم فيه ارض مقدسة. وقال انا اله ابيك اله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب.

وانصرافه عن التفكير في شيء يستطيع أن يستبدله بمدى وجوده في الحياة ، وإيمانه بالله.

أما فيما يخص الحديث عن الحياة الأخرى وما بعد الموت فإننا نجد في إنجيل لوقا إشارة إلى ذلك:" فقال على لسان المسيح :" وأما أن الموتى يقومون ، فحتى موسى أشار إلى ذلك في الحديث عن العليقة([1]) حيث يدعو الرب إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب ، ولكن الله ليس إله أموات بل هو إله أحياء "([2]).

تبدو هذه الفكرة الأخيرة إشارة غير مباشرة إلى البعث و الحياة الأبدية ولكن في نفس الوقت هي برهان على خلود الروح ، فالمسيح يتحدث في الكثير من الأحيان عن الملعونين من خلال عرضه لحالتهم " فهو يتحدث عن الظلمة الخارجية " حيث يكون هناك الملعونين " البكاء وضرير الإنسان، وهو يعلم تلاميذه قائلا :" ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالأحرى من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم "([3]).

وإذا ما حاولنا أن نلخص موقف المسيحية من الموت، فإنه يمكن القول أن هذه الفكرة ارتبطت بالخطيئة هذه الأخيرة التي بسببها حكم على الإنسان بالفناء "فالموت عندهم ينبع من الخطيئة وصلة الموت بالخطيئة كصلة العلة بالمعلول " ([4]). ونجد إشارة إلى هذا في مقولة بولس ([5]) المشهورة حيث يقول :" بواسطة الإنسان نفذت الخطيئة إلى العالم وعن طريق الخطيئة نفذ الموت "([6]) ، وهذا الربط السابق بين الموت والخطيئة الذي تجسد عند المسيحية يدل على أن الحرية الفردية هي تعبير على أن الإنسان يرتكب الخطيئة انطلاقا من ذاته وشخصيته المستقلة وبالتالي فوجود الحرية يؤدي إلى ارتكاب الخطيئة ، هذه الأخيرة تؤدي إلى الموت " فلما كان مصدر الخطيئة هو الحرية الفردية كان للمسيحيين حق في وضع مشكلة الموت على محاور ثلاث الشخصية ، والحرية الفردية والخطيئة " ([7])،" فحينما يتحدث اللاهوتيون المسيحيون عن الموت فإنهم يعطونه معنى ثلاثيا فهناك بادئ ذي بدء الموت الطبيعي الذي هو نهاية الحياة العضوية، ثم هناك موت روحي يعبر عنه وضع الإنسان خارج الإيمان المسيحي، وهناك أخيرا موت صوفي وهو المشاركة في

---

[1] رجع السابقن ص 295 .

[2] - الدكتور مجدي محمد إبراهيم، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 167 .

[3] - جمس ب . كارس ، الموت والوجود دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي، مذكور سابقا ،ص 288.

[4] - الدكتور مجدي الدكتور مجدي محمد إبراهيم، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 167 .

- جمس ب . كارس ، الموت والوجود دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي، مذكور سابقا ،ص 288.

- الدكتور محمد إبراهيم ،مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ص 173 .

[5] - بولس يوحنا : يعتبر أول مبعوث مسيحي إلى الأمم غير اليهود وقد ولد يهوديا في طرسوس في ولاية كيكيلية ، ، نحول إلى المسيحية نتيجة رأية تبدلت له في الطريق إلى دمشق حوالي 35م ، وغير اسمه من شارل إلى بول أو بولس قام برحلات تبشيرية ، أعتقل من طرف السلطات الرومانية لمدة عامين ويرجح أنه أستشهد عام 64م أو 67 .

[6] -

[7] -

الحياة الإلهية التي تجـري بالفعـل خلال هـذا الوجـود الأرضـي علـى الرغـم مـن الموت الطبيعي " [1].

وهناك أفكار كثيرة حول العصر الوسـيط والفلسـفة المدرسـية ،تعتـبر أن هذه المرحلة هي مرحلة جهل وظلام وخضوع لسلطة الكنيسة والإسـراف فـي استخدام القياس والمناقشة اللفظية ...لكن بالرغم مـن ذلـك لا يمكـن إنكـار أهمية العصور الوسطى وفلسفتها في تحديد الفلسفة اللاحقة عليها و" الحقيقة أن المدينة الحديثة منحدرة عنه وأنه لا يمكن تفسير مـذاهب الفلسـفة الحديثـة وفهم مصطلحاتها بغير الرجوع إلى المذاهب المدرسية " [2]

إن المسيحية بهذه الطريقة تعـبر عـن تـوجه جديـد إلـى الجـانب الروحـي علـى عكس اليهودية تماما التي كـانت تعـبر عـن النزعـة الماديـة والرغبـة فـي " إلـه محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال"[3].

وبالرغم مـن أننـا نجـد حضـورا للمـوت فـي كـل مـن الخطـاب المسـيحي واليهودي إلا أن الإسـلام كـان أكـثر إشـارة إلـى المـوت وإلـى البعـث والثـواب والعقاب ، وهو ما سنحاول عرضه فيما يل،ي :

الموت في الإسلام :

إن القرآن الكريم تحدث عن الموت في كثير من الأحيـان ، فبعـض الآيـات الكريمة وردت فيها كلمة الموت واضحة والبعـض الآخـر اشـتمل علـى مـرادف يحمل نفس معنى الموت مثل "توفي "

" والموت في القرآن الكريم يعتـبر تمـام وليـس هلاك أو دمـار " [4]، فهـو حادثة بالنسبة لكل إنسان وهو حالة انتقال من حياة إلى عالم آخر يقول تعالى "

---

[1] - جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، مذكور سابقا ، ص 94.

[2] - يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، دار القلم ، لبنان ، 1979 بدون ط ص 66 .

[3] -

[4]- Hammana Boukhari ,L'autre face de la vie . la mort , une lecture philosophico religieuse , rencontre international de carthage - beit el hikma- tinis 2001,p07

: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَـن زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّـةَ فَقَـدْ فَـازَ وَمـا الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا إِلاَّ مَتَـاعُ الْغُـرُورِ ﴾([1]).وهذا الموت المذكور في القرآن الكريم مرتبط بالأجل ، فإذا جاء أجل الإنسان مـات سواءا بسبب أو بغير سبب إذ أن " النفـوس جميعـا معلقـة بآجالهـا بـإذن اللـه وقدره وقضائه فمن ختم عليه بالقدر أن يموت ، مـات ولـو بغيـر سـبب ، ومـن أراد بقاءه فلو وقع من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله "([2]).

وكل ذلك يعود إلى إشاءة الرحمـان يقـول تعـالى : ﴿ وَمَـا كَـانَ لِنَفْـسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَـا وَمَـن يُـرِدْ ثَـوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾([3]) وقوله أيضا. : ﴿ الَّذِينَ يَصُـدُّونَ عَـن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِـالآخِرَةِ كَـافِرُونَ ﴾ ([4]).وأغلب الآيـات القرآنيـة التي يذكر فيها الموت ترتبـط بآيـات لاحقـة لهـا عـن مـا بعـد المـوت ، وأن هـذا الموت أو هذه النهاية قد تكون سعادة أبدية أو عقاب من خلال الحساب .

إذا الموت فـي القـرآن الكريـم هـو نهايـة لحيـاة اختياريـة تبـدأ مـع مرحلة انتقالية جديدة ، حيث أن كل إنسان سـيوفى أجـره مـن خلال عملـه فـي الـدنيا يقول تعالى في سورة النساء الآية 173 : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْـتَكْبَرُواْ فَيُعَـذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ﴾ .

فالموت في الإسلام كان واضحا يعبر عن انتقال من الحياة الدنيا إلى حيـاة أخروية جديـدة ، وتكلـم القـرآن الـذي لـم يتعـرض للتحريـف مثـل اليهوديـة ولا لسلطة الكنيسة ، تكلم عن البعث وعن العقاب والجزاء مع تركه لبعض الأسئلة بدون إجابة أو مبهمة إلى حد ما، كفكرة الروح مثلا ، فبعد الموت يتعرض الجسد إلى الفساد ثم يبعث من جديد لكن الروح لا توجد إجابة واضحة عنها في القرآن حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَـنِ الـرُّوحِ قُـلِ الـرُّوحُ مِـنْ أَمْـرِ رَبِّـي وَمَـا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ([5]).

المــوت فــي الفلســفة الحديثــة والمعاصــرة:

إن الموت في خطاب الفلسفة الوسيطية وإن كـان يعـبر عـن حضـور الفلسـفة

---

[1] - سورة آل عمران الآية 185

[2] - عبد الرحمان بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن-، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 1، سنة 2002،ص 81.

[3] - سورة آل عمران الآية 145 .

[4] - سورة الأعراف 45 .

[5] - سورة الإسراء ، الآية 85.

اليونانية خاصة الأفلاطونية والأرسطية ، إلا أنه تجسيد لوجهة نظر جديدة أكثر تأكيدا على فكرة الموت ،وضرورة القلق والتوتر حيث أنه " لم تشدد أي مرحلة تاريخية على فكرة الموت على نحو ما فعلت العصور الوسطى المنصرمة فقد كانت هناك دعوى دائبة لتذكر الموت تدوي على امتداد الحياة "([1]).

وتجسد التفكير في الموت من خلال فكرة رئيسية وهي محاولة تجاوز الخوف منه ،والبحث عن الأسباب التي تجعله كذلك ، إلا أنه بالرغم من هذه المحاولات فإن الموت شكل خوفا وفزعا وقلقا في هذه المرحلة وهو ما يعبر عن الموقف السلبي المخالف تماما للتجاوب الإيجابي مع فكرة الموت في عصر النهضة، وهي الفترة التي تغير فيها شعور الإنسان وأصبح يفكر بطريقة أكثر حيوية وأكثر تعبيرا عن الذات ووجودها ، فما هي إذا الرؤية الجديدة التي تقدمها فلسفة عصر النهضة ؟.

الموت في عصر النهضة :

" إن بيان عصر النهضة ذاك هو أبعد ما يكون على الموقف السلبي المسيحي والرواقي ، فهو يستبدل بذلك الموقف مقاومة إيجابية للقدر وذلك بهدف تحقيق الذات وإدراكها " ([2]).

إذ ينتقل الفكر في هذه المرحلة إلى اتجاه أكثر تغييرا لفكرة اعتبار أن الموت مصدرا للرعب أو الدمار ، لأن الإنسان يستطيع أن يضفي الحيوية على حياته وينصرف عن محاولة إثبات البقاء الشخصي ، " إن نكران البقاء الشخصي بعد الموت له ميزة منفردة هي تحرير البشر من ألم الخوف من الجحيم والهلاك الأبدي"([3])، " ونجد " توما الإكويني " هو الآخر اهتم بإشكالية النفس ومصيرها بعد الموت حيث يرى أنها " ليست مستقلة أو جوهرا كاملا بل إن البدن يدخل في ماهيتها وطبيعتها لا في هذه الحياة الدنيا فحسب ،ولكن بعد موتها أيضا ولذلك فإنها تسعى بعد خروجها من البدن نفسا مفارقة" ame sépare" ()). فالبدن يساعد النفس على معرفة وإدراك الحياة ، وهذه النفس خاضعة لحتمية الموت " فلولا دخول معنى اللحم في تعريفها لما استطاعت النفس التي يتوفاها الموت أن تحيط علما بما يقع في الحياة الدنيا ، وهي لا تستطيع ذلك إلا إذا استخدمت أعضاء الحس التي فارقتها " ()

لم يتوقف التفكير و حول الموت عند هذا الحد السابق فحسب أو في مرحلة العصور الوسطى والنهضة، وإنما امتد الوعي الإنساني بالموت إلى أبعد من ذلك وهو ما يتجسد بشكل واضح في الفلسفة المعاصرة .

---

[1] المرجع السابق ، ص 99 .

[2] - المرجع السابق ، ص 104 .

[3] - المرجع السابق، ص 105.

الموت في الفلسفة المعاصرة:

لقد خلقت فكرة الموت حيزا كبيرا ومفاهيم جديدة ، ضمن هذا الخطاب وهو ما يشكل صعوبة في إعطاء نظرة عامة حول الموت في هذه الفترة نظرا لاختلاف الآراء واختلاف الاتجاهات والمذاهب الفلسفية التي تناولتها، لذلك سنقتصر فقط على بعض الآراء البارزة والأفكار الجديدة عند بعض الفلاسفة ،لأن فكرة الموت وإن كانت تبدو في بعض الأحيان غامضة ولا تقع كموضوع لتجربتنا، فإنها بالرغم من ذلك كانت موضوعا قويا للتأمل الفلسفي ، فالفلسفة المعاصرة بررتها في بعض الأحيان ورفضتها في أحيان أخرى ،وتصالحت معها واعتبرتها أهم مواضيع التأمل الفلسفي في مواقف أخرى وهو ما يظهر عند فلاسفة الفلسفة المعاصرة.

لا شك أن المواقف اختلفت من فيلسوف إلى آخر حسب طبيعة المذهب والتوجه الفلسفي وقد شهدنا تطورا كبيرا في الفكر المعاصر ، هذا الأخير الذي أدمج مفاهيم كثيرة ضمن رؤى فلسفية تأملية بعضها يتقبل الموت ويفكر فيه ويدعوا إلى تجاوز الخوف منه ، وبعضها الآخر يخرج فكرة الموت من مجال الفلسفة ويدمجها في مجال البيولوجيا ، وهناك من اعتبر الموت "مشروعا يحطم كل المشاريع" أو أن "الإنسان مشروع للموت "، ووجوه هو وجود نحو الموت.

قد تختلف هذه التأملات الفلسفية ، لكن في جميع الأحوال هناك تفكير حول إشكالية الموت أو بالأحرى لا يزال الموت يشغل الإنسان ، ولأن الفلسفة المعاصرة لا يمكن حصرها أو اختصارها في بعض السطور فإننا سنركز اهتمامنا هنا على فيلسوفين كان لهما موقف بارز من إشكالية الموت وهما " مارتن هيدغر " (1889- 1976) و " جون بول سارتر (1905-1980).

"فهيدغر " ركز كل اهتمامه على الوجود فكان هذا الأخير مركزا لكل الاهتمامات الفلسفية ، وإذا كان الوجود يبدوا بالنسبة لنا مفهوما واضحا متعلقا بنا وانه واضح بذاته فإن هذا الوضوح هو ما دفع إلى محاولة فهمه أكثر واختراقه ، ف " هيدعر" يعلن أننا نملك في الوجود الذي نمثله نحن أنفسنا ، وفيما يسميه بالوجود الإنساني dasein ... فهما سابقا على التفلسف وواضحا من تلقاء ذاته للوجود وهذا الفهم للوجود هو لب الانطولوجيا بأسرها وهو قلب النظرية الفلسفية للوجود"([1])

لذلك يؤكد هيدغر على أن ما يجب أن نتأمله هو الوجود الإنساني (Dasein) المرتبط بالذات الواعية في ارتباطها بالوجود العام ، ووجودها في العالم ، " أما المقصود بالوجود في العالم بالنسبة للوجود الإنساني فهو الأنماط المختلفة من الوجود في ، أي " أن يكون هناك ارتباط مع " و "و ضع شيئ ما " و " القيام بشيء ما " و " تنفيذ شيء ما " و " الإفصاح " و" التشاؤم " و "

[1]1- جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،مذكور سابقا ، ص 245.

التأمل والمناقشة " و" "اتخاذ القرار"ولجميع أنماط طابع الهم ..."([1]) ، وذلك يعني أن المهم هو الوجود الإنساني وليس ما يجب أن يكون عامة " وهو ما يمثل النهاية ذاتها أي الموت، حيث ينتمي الموت إلى إمكانية الوجود الإنساني ، ويحدد عدد كل شمول ممكن للوجود حقا ، من المستحيل أن يعايش الوجود الإنساني هذا التوقف عن الوجود أو أن يتفهمه كشيء تتم معايشته " ([2]) .

فالإنسان لا يستطيع أن يفهم الموت لأنه لا يعيشه كتجربة خاصة ولا يستطيع أن يفهمه من خلال تجربة الآخر ، فهو يعبر عن الوجود الإنساني فمن خلاله فقط نحقق وجودا فرديا وأن الإنسان لا يستطيع إلا أن يتحدث عن وجوده هو الخاص والفردي ، ولا أحد يستطيع أن يعيش موتنا في مكاننا " فالموت لا ينتمي إلى الدازين الشخصي للمرء على نحو غير محدد بل أن الموت يتملكه على أنه دازاين فردي ، فالموت يعني أن تعلقنا بالعالم ووجودنا مع الآخرين لا يفيدنا في شيء " ([3])

"فهيدغر" يعتبر أن الموت هو الذي يعطينا الشعور بذواتنا وأن تفكيرنا فيه هو الذي يدفعنا إلى الحياة ،فالوعي " بالموت يستثير في الإنسان وعيه بفرديته ذلك لأن موتى هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يؤديه آخرون عنى: والوعي بأن الموت مني أنا يزيد إحساسي بذاتي وبفرديتي ولامبالاة بالموت هو رفض لفرديتي و قبول مني بأن أعيش بلا أصالة " ([4])

لأن وجود الإنسان هو في الحقيقة وجود نحو الموت " ([5]) ، لذلك فالإنسان يعتبر أنه سائر نحو الموت هذا الأخير الذي يهدده في كل لحظة من لحظات وجوده ، وبذلك يدرك المرء " أنه أكثر الممكنات كلها يقينا ، إنني في الحالة المزاجية للقلق أكون على وعي بأني أعيش في مواجهة نهاية ، فالوجود البشري هو وجودي محفوف بالمخاطر ، ويمكن في أي لحظة أن يختفي في العدم " ([6])

كما أن هيدغر" يعتبر أن الموت أمر يهدد الإنسان ولا نستطيع أن نتحرر منه ، فهو يرافق وجودنا لذلك يقول :بأن " الوجود الإنساني يموت في الحقيقة طالما هو موجود " ([7])

كما أن الموت لا يعتبر اكتمالا للوجود الإنساني أو إنتهاءا لأن الوجود الإنساني باعتباره كائنا فهو لم يكتمل بعد ، فهو بذلك يمثل النهاية في حد ذاته هذه الأخيرة التي لا تعني " الوصول إلى نهاية الوجود الإنساني ، وإنما تعني الوجود نحو النهاية لذلك .

---

[1] - المرجع السابق، ص 245.

[2] -- المرجع السابق، ص 248.

[3] - جيمس ، ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي ،،مذكور سابقا، ص 549.

[4] - عبد المنعم حنفي ،الموسوعة الصوفية،،مذكور سابقا،ص 474.

[5] -ماري قوري قرين،هدقر،تعريب مجاهد عبد المنغم مجاهد،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بدون طبعة 1973،ص 31.

[6] -جون ماكوري،الوجودية، تعريب إمام عبد الفتاح إمام ’مراجعة فؤاد زكرياء،عالم المعرفة ،1986،ص ص 11 ،12.

[7] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،مذكور سابقا ، ص 248.

إن الموت هو نمط للوجود يحمله الوجود الإنساني على كاهله بمجرد أن يكون " وهذه النهاية التي يتكلم عنها "هيدغر " لا تعني أن الدازاين هو من يسير نحو النهاية " وكما أن الدازاين هو بالفعل خاتمة أيضا والخاتمة التي نعنيها هنا عندما نتحدث عن الموت لا تعني أن للدزاين وجود في خاتمته، بل انه وجود متجه إلى خاتمة هذا الوجود،، فإذا كان كونه خاتمة يعني أن يكون لم يكتمل بعد فهذا إذن يعني أيضا أنه يموت "([1])

ولعل "هيدغر" يدعوا إلى أن يعيش المرء على نحو أصيل ، وأن يتخلى عن الوجود الذاتي الذي يرجح الموت دون يقين حقيقي لأنه " من خلال تحقيق وجودنا جوهريا وبالضرورة باعتباره وجودا نحو الموت ،من خلال هذا فحسب يمكن للإنسان أن يعلوا على حياته اليومية الضيقة النطاق ليصبح ذاته حتما ويغدوا حرا بصورة حقيقية " ([2]) .

ويعتبر "هيدغر" أن الموت يحمل جانبين فهو من ناحية يهدد، ومن ناحية أخرى هو مفتوح بحيث " أن الضمان السلبي الذي يقدمه الموت هو أن الدازاين سيظل دائما وجوده في حال الإمكانية الإيجابية ، فالموت بالنسبة للدازاين ليس هو مجرد واحد من إمكانياته بل هو الإمكانية الوحيدة التي تضمن للدازاين كل إمكانياته الأخرى " ([3])

ليصبح بذلك الموت فاصلا بيننا وبين الماضي وبين الهم الوجودي . كما يرتبط الموت عند " هيدغر " بالحرية وذلك باعتبار أن وجود الإنسان هو وجود نحو الحرية فإذا كان الموت يمثل بالنسبة لنا سلطة وقوة فإن التغلب عليه هو سير نحو الحرية ، لهذا يصف هيدغر وجود الدازاين " على أنه وجود نحو الحرية " ([4]) ،فالحر هو الذي يموت .

وفي مقابل هذه الرؤية الوجودية للموت نجد فيلسوف آخر بدل أن يجعل الوجود محور تفكيره ركز على الحرية وهو " جون بول سارتر " (1905-1980) وقد اختلف عن " هيدغر " في فهمه للموت ، فإذا كان هذا الأخير يعتبر أن الوجود الإنساني وجود نحو الموت على نحو فردي أي موتي أنا ، فسارتر " يذهب إلى القول بأنه ليس بوسعي أن أتحدث عن موتي إلا بعد أن أضع نفسي بالفعل في منظور الذاتية ، فذاتيتي هي التي تجعل موتي كذلك أي تجعله موتا متعلقا بي ، فالموت يحطم كل مشاريعنا ويفرغ حياتنا من كل معنى ، لذلك يستنتج سارتر أن " الموت ليس أبدا ذلك الذي يمنع المعنى للحياة وإنما هو على العكس ، ذلك الذي يحرم الحياة بالفعل من كل مغزى ، وإذا كان علينا أن نموت فإن حياتنا تخلوا من المعنى لأن مشكلاتنا لا تتلقى أي نوع من الحل ولأن معنى المشكلات يظل دوما دون

---

[1] - جيمس ، ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي ،،مذكور سابقا، ص 547

[2] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،مذكور سابقا، ص 251.

[3] - جيمس ، ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي ،،مذكور سابقا، ص 548.

[4] -المرجع اليابق،ص 550.

تحديد "([1]) ،ويغدو الموت بذلك حدثا وواقعة عرضية لا يمكن للإنسان انتظاره أو توقعه ، ويصل سارتر بذلك إلى فكرة مهمة في فلسفته كلها وهي أن الموت عندما " يكشف لنا عن نفسه وعما هو عليه بالفعل إنما يحررنا من ضغطة المزعوم " ([2]) ،لذلك يقول سارتر " إنني لست حرا في أن أموت وإنما أنا فاني حر "([3]) .

فالحرية شاملة وكاملة عند الإنسان وهي تحقق وجودها من خلال مواجهتها للموت ، هذا الأخير الذي لا يقيدها بالرغم من أنه يقيدنا ، أي أن تحدينا للموت هو تحقيق لحريتنا ، فمن العبث الإصرار على القول بأن السجين حر دائما في مغادرة السجن لكن بوسعنا القول بأنه حر دائما في السعي وراء الهرب ، أو في السعي وراء أن يتحرر ، وهو ما يعني أنه أيا كان موقفه فبوسعه أن يشرع في الهرب وأن يتعلم قيمة مشروعه من خلال البدء في تنفيذ الفعل،فالإنسان يكون بذلك" فانيا حرا وليس حرا من أجل الموت" ([4]).

[1] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،مذكور سابقا، ص 259 .
[2] - المرجع السابق ، ص 263 .
[3] - المرجع السابق، ص 264.
[4] - المرجع السابق ، ص 266 .

لا يمكن لأي دراسة فلسفية أو بحث ما أن يعبر عن الطريقة المثالية والمثلى في إنتاج فكر معين ، وإنما كل شيء يكتسي أهمية من نوع خاص واستقلالية ، أو بعبارة فلسفية يعبر عن فكر ما في زمن معين .

فالإنتاج الفلسفي هو إنتاج هائل وواسع من المستحيل أن يلم به الباحث في مجموعه . وإنما ذلك يكون من خلال دراسته بشكل متفرق كونه يهدف إلى الكشف عن الحقيقة .

ولأن الفلسفة اليونانية تعتبر عموما المنطلق الأساسي والأول لكل فكر ، وذلك لما تحمله من إشكاليات وأفكار أو بالأحرى فلسفة تأملية عميقة إن لم نقل فريدة ، فأكبر المذاهب والاتجاهات الفكرية الفلسفية المعاصرة تقوم بقراءة التراث اليوناني قراءة جديدة، وتعتبر أن مستقبل الفلسفة والفكر على حد السواء يكمن في الفلسفة اليونانية ، هذه الأخيرة التي تناولت الكثير من الأفكار والإشكاليات التي يمكن أن يفكر فيها الإنسان ، البسيطة منها والغامضة فدرست النورانيات والطبيعيات واشتملت على الجانب الأدبي والسياسة والأخلاق ... وكل موضوع شغل الإنسان اليوناني إلا وفكر فيه وأنتج حوله فلسفة ، ولم تكتفي في ذلك كله بإعطاء تعريف أو شرح لموضوع ما،و إنما أبدعت وقدمت شيئا جديدا ومختلفا ومثيرا إلى حد كبير .

ومن بين المسائل غير المريحة بالنسبة لنا والتي لا يحلو لنا أن نتذكرها أو تخفينا وتقهرنا ونخضع لحتميتها أكثر من أي شيء آخر إلى حد أننا لا نستطيع مواجهتها سواء كفكرة أو ممارسة ، وعزاؤنا الوحيد فيها هي أنها مصير حتمي يجب الخضوع له ، وأننا ربما سننعم بحياة أفضل ،هي فكرة الموت التي كان لها حضور قوي في الفلسفة اليونانية سواء ما قبل السقراطية أو ما بعدها كما سبق و ذكرنا، ولكن هذا لا يعني أن الفلسفات والمذاهب الدينية الأخرى لم تتناولها .

ولكن الأمر الأكثر إثارة هو أن الحكمة اليونانية اشتملت على حدث فلسفي وأقول حدث لأنه يعبر عن موقف وتجربة وممارسة تجسدت في فيلسوف الأخلاق الحكيم«سقراط» وقد نجد مثل هذا الموقف القوي والشجاعة عند الشهيد المصلوب «الحلاج» الذي سيكون الحديث عنه فيما بعد.

أما «سقراط» الذي لا يزال خالدا رغم القرون التي مضت على موته ،وخلوده هذا لا يتمثل في بقاء الأفكار والمذاهب الفلسفية ، لأن هذه الأخيرة وان بقيت فان ذلك يعود إلى كتابات أصحابها المطولة إلا أن «سقراط» خلدته مواقفه .

فكان طيلة حياته الفكرية معلما بدون أجر وبدون مدرسة ولم يكن يهتم بكتابة ما يقول بل يهتم بما يفعل وبقيمة الذي يفعله ،فاختلفت بذلك نظرته للموت التي كانت نابعة من عمق الرجل وأخلاقياته وبالأخص رغبته في تسليم رسالته ،" فسقراط علم الناس بفكره وسلوكه برأيه وموقفه ، فقد كان حقا

الأمثولة والقدوة ،ولنقل أنه كان ثمرة من ثمار تلك البداية العظيمة التي جسدتها الأعجوبة الإغريقية"([1]).

لكن كيف فهم «سقراط» الموت ؟ ما هو الموت في تصور هذا الحكيم ؟ لماذا تقبل «سقراط» حكم الموت بالرغم من أنه كان يستطيع الهرب ؟ ... هل ذلك جزء من فلسفته وفكره ؟ أم أنه بلغ السبعين ولم يعد يرغب في العيش ؟ كما تقول بعض القراءات ([2]) أم أن كل ذلك هو تعبير عن حكمة «سقراط» وعن الإيمان بالقانون، وتعبير عن الحياة الحقيقية التي لا يمكن أن تكون إلا بالموت .

د

[1] - علي حرب ، أسئلة الحقيقية ورهانات الفكر ، مقاربات نقدية وسجالية دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، ط 1 سنة 1994 ص 44 .

[2] -يرى جاك شورون في كتابة الموت في الفكر العربي أن الشيخوخة كانت سببا في فتور «سقراط» عن الدفاع عن نفسه ضد عقوبة الموت ، وقد كان عمره في السبعين حينما صدر عليه الحكم بالإعدام .

الفـصل الثـاني:

• الموت بين «سقراط» و"الحلاج»

الموت عند «سقراط» [1]

لقد تكلم «سقراط» عن الموت فـي مواضـع كـثيرة مـن المحـاورات على لسان أفلاطون وخاصة محاورة " فيدون " التي تصور اللحظـات الأخيـرة

---

[1] - بداية وقبل عرض مولده وحياته نشير إلى أن الكثير من المؤرخين والباحثين من يعتبر "سقراط" شخصية أسطورية أو غير موجودة صنعها أفلاطون من خلال محاوراته .

إلا أن البعض الآخر يعتبره من أعظم الفلاسفة اليونان وأب الأخلاق ، ويؤرخ له أنه عاش بين سنتي (469-399 ق.م) بأثينا كان أبوه نحاتا وأمه قابلة ويقال أنه اشتغل بمهنة أبيه ، لكنه ما لبث أن تخلى عن ذلك واتجه إلى الاشتغال بالفلسفة والدعوة إلى الأخلاق والفضيلة حيث اعتبر أن ذلك رسالة مكلف بها حيث اشتغل بالفلسفة حسب المؤرخين ما يقارب العشرين عاما والثلاثين عاما ، ولم يغادر أثينا الا لفترات قصيرة عندما كان جنديا في ثلاث مناسبات ، حيث اشترك في حربين دامت الأولى من سنة 432ـ 429 ، ووقعت الثانية سنة 422 لم يكن يهتم بالسياسة أو بالاشتغال بها ، ولأن القرعة أصابته اشترك فيها مجلس الشيوخ فعرف بالعدل والنزاهة ، واستقلال الرأي بين الديمقراطيين والأرستقراطيين ، وما إن أنهى فترة انتخابه حتى عاد إلى تبليغ رسالته ودعوة الشباب إلى الأخلاق والفضيلة حتى بلغ السبعين من عمره ، وأول تهمة وجهت له هي الطعن الذي ورد في رواية السحب لأرسطو فان حيث اتهمه بأنكار آلهة المدينة وبتعليم التلاميذ تغليب الباطل على الحق وكان عمره حينها حسب الروايات سبع وأربعين عاما .

وبعد ثلاثة وعشرين عاما ، سنة 399 اتهمه ثلاثة من أثينا بأنه ينكر آلهة المدينة ويقول بغيرهم ويفسد الشباب وهم أنيتوس أحد رؤوس الصناعة وزعماء الديمقراطية ومليتوس شاعر وليقون خطيب .

قضى ثلاثين يوما في السجن قبل إعدامه ، ويقال أن أصدقاءه هيئوا له ظروف الهرب لكن رفض ذلك.

أما القضاة الذين حكموا عليه اختيروا بالقرعة ويقال أن عددهم خمسمائة واثنين، في البداية أقر ما يقارب ستين صوتا بأنه مذنب ، وبعد عدم مبادلات " سقراط " بالحكم واستفزازه للقضاة صوت الأغلبية بإعدامه .

والأيام الأخيرة التي قضاها " سقراط " في السجن مع أصدقائه يحاورهم في أمور الفضيلة والموت والخلود .

ويوم الإعدام كان قويا وعندما قرب المغيب قدم السجان وأخبره عن موعد تجرع السم .فتناوله بكل هدوء وأخذ يمشي حتى ثقلت رجلاه ثم استلقى على ظهره كما أمره السجان ، حتى مات وأغلق عينيه وفمه أقر يطوون وسوف نعرف حياة سقراط وفلسفته وأكثر وحتى لحظات موته من خلال المباحث الخاصة ب " سقراط "

من حياة «سقراط» ومواقفه من الموت والخلود خاصة ، وذلك طبعا وفق أسلوبه التهكمي التوليدي الفلسفي ، فهو في بداية الأمر يرى أن الموت هو بالضرورة شيء ما حيث يقول : " وهل هو شيء أخر غير انفصال النفس عن الجسد ؟ أليست حالة الموت هي أن يكون الجسد بمفرده ومنفصلا عن النفس وقائما بذاته ، وأن تكون النفس من جهة أخرى بمفردها منفصلة عن الجسد وقائمة بذاتها" ([1]).

إن المتأمل في هذه الفكرة الأخيرة سيفهم طبيعة الموت كما يصورها «سقراط» والتي يحصرها في بداية الأمر في ذلك الانفصال الذي يحدث بين النفس والجسد ، بحيث يصبح كل واحد منهما مستقلا بذاته عن الآخر ، ويستطرد «سقراط» بعد ذلك ليفسر طبيعة هذا الانفصال وحقيقة الجسد المعيق للنفس في طريقها إلى الحقيقة، مؤكدا في ذلك على أن الوجود الحقيقي والمعرفة الخالصة لا تكون إلا عند الفيلسوف الذي يتمكن من التخلص من كل اللذات أي من مطالب الجسد ، ويصرف نفسه عن الاهتمام بهذه الأمور التافهة وهو ما يشير إلى " أن الفيلسوف يخلص النفس إلى أقصى درجة ممكنة من علائق الجسد ، وأنه لهذا يتميز عن كل البشر الآخرين"([2]).

ويبدو أن «سقراط» يحاول من خلال ذلك أن يبين علاقة النفس بالجسد و إمكان حدوث المعرفة والوصول إلى الحقيقة ، هذه الأخيرة التي لا تحدث إلا عندما يتخلص الإنسان – الفيلسوف – من لذات الجسد أو من الجسد بصفة عامة ، إذا الانفصال هو أدق تعبير عند «سقراط» عن الموت ، إلا أن هذا المفهوم يتطور تدريجيا في محاورة فيدون لأن «سقراط» يضيف تصورا جديدا وهو التحرر وكأن النفس مسجونة في الجسد ولن تجد حريتها ، ولن تصل إلى الحقيقة والخلاص إلا من خلال هذا الانفصال، ويظهر ذلك بشكل واضح في محاورة فيدون في قوله " أو ليس هذا هو ما يسمى بالموت تحرر النفس وانفصالها عن الجسد " وهو ما يعبر على كيف أن الموت" يرتفع إلى مرتبة أعلى من الحرية ، فالموت يأتي في صورة تغيير وكل تغيير هو لون من ألوان ضياع القدرة إذ يكون هذا التغيير تحت رحمة القوى الخارجية التي لا يهمها وجودنا في شيء" ([3])،فالإنسان الذي يهتم بالوجود المادي أو بالأحرى بحياة الجسد يكون تحت سيطرة هذه المطالب وواقعا تحت العبودية ، ولن يتحرر إلا من خلال التجاوز والانفصال عن الجسد أي من خلال الموت ، هذا الأخير الذي يتحول من حادثة طبيعية حتمية إلى قوة محدودة تساعد الروح على الرؤية المكتملة الواضحة أي الوصول إلى المعرفة الخالصة .

---

[1]- أفلاطون ، فيدون ،سلسلة محاورات افلاطون مترجم عن النص اليوناني، فيدون فى خلودالنفس، ترجمة وتقديم عزت قرني ،دار قباءللطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،2001،ص.

[2] - المرجع السابق .

[3] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي،مذكور سابقا ، ص 513.

ف سقراط يحاول أن يقدم فكرة جديدة عن الموت تختلف عن الآراء السابقة في أغلب الأحيان، وفي أحيان أخرى تنبع من أسرار الديانة الأورفية ، فهي بذلك فلسفة في الموت إن لم نقل حكمة اختص بها «سقراط» الذي اختار موقفا وسطا ، ولم يتجه نحو الجانب العلمي الموجود عن منظري الطبيعة ، والمفتقر كما يرى إلى الحس الإنساني فلقد " اعتقد أن الرياضة والفيزياء والفلك ليست أشكالا ذات قيمة للمعرفة "([1]). وفي نفس الوقت " عارض مذهب السفسطائيين وحارب السفسطة" ([2]) ، وترفع عن عبادة الأصنام والتماثيل مستجيبا في ذلك كله إلى الصوت الداخلي الذي كان يدعوه إلى الحكمة والمعرفة والأخلاق العالية ، الأمر الذي جعل مواقفه وأقواله تصنع الحكمة وتنتج الفلسفة السقراطية الخالدة ، والتي تجسد بشكل جلي أخلاقياته وإيمانه القوي بمبادئ الحياة الحقيقية والمعرفة الخالصة وهو ما جعله يعتبر :" أن الموت ليس بشر ولكنه الخير كله وحالة الإنسان بعد الموت أتم" ([3]).

فهو يربط بين الموت وبين حالة الإنسان بعد الموت وقبل ذلك كله هو يغير من الفكرة السابقة التي كانت تعتبر الموت قوة قاهرة ومصدرا للخوف والإزعاج والتشاؤم ، أو هي الشر كله في مقابل الخير الذي يضعها «سقراط» فيه ، وفيما كان الموت يمثل نهاية أصبح يعبر عن بداية وكمال وخلاص من الجسد ومطالبه وطريقا إلى المعرفة والحقيقة والحياة الخالصة فهو : "كنوم لا تتخلله الأحلام ، وسيغدوا الموت كسبا لا نقاش فيه، وأنه لرحلة إلى موضع آخر ... فأي شيء يمكن أن يكون أعظم من هذا" ([4]).

فالموت يحتل مرتبة أعلى من الحياة التي يعيشها الإنسان لأنه حياة أبدية ودائمة فسقراط يعبر عن ذلك من خلال هذه العبارة التالية " عندما فتشت عن علة الحياة ألقيت الموت ، وعندما وجدت الموت ألفيت الحياة الدائمة "([5])،كما أن الموت هو ضد للحياة وفيما يلي جزء من المحاورة التي يحاول فيها «سقراط» أن يبرهن على ذلك .

...فاستطرد «سقراط»: كيف إذا ؟ أليس للحياة ضد ، كما أن لليقظة ضد هو النوم ؟

فقال كبيس : بلى تماما .

وما هو ؟

فقال : هو الموت .

إذن فمن بعضهما ينشآن إذا كانا ضدين ، وتكون بينهما نشأتان ما داما أثنين "([6]).

---

[1] - - ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا، ص 99.

[2] - السفسطة بكسر السين الأولى أو بفتحها - هي انتهاج القياس الواهي بغية تزوير الحقائق وتمويهها .

[3] - مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 22 .

[4] - جاك شورون ، الموت في الفكر العربي ،مذكور سابقا ، ص 48.

[5] - أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهر ستاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ، بيروت ط . سنة 2005 الجزء الثاني ، ص 82 .

[6] - أفلاطون،فيدون في خلود النفس ، مذكور سابقا ،ص 140 .

ويمكن أن نستخلص من هذا الجزء السابق من محاورة " فيدون" أن الحياة هي ضد للموت ، لكن هذا الأخير لا يعني نهاية الإنسان وفنائه التام ، وإنما هو بداية لحياة جديدة أخرى خالدة ، على عكس الجسد القابل للفناء والتبدد " فالواقع أن هناك عودة إلى الحياة ، وأن الأحياء ينشئون من الأموات وأن نفوس الموتى تبقى موجودة ، ومصير النفوس الطيبة أفضل ومصير السيئة أسوأ "([1]).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن «سقراط» قد أعطى مفهوما للحياة التي يعيشها الإنسان في الدنيا وان لم يخصص لذلك جانبا معينا إلا أنه يشير في مواضيع متفرقة من محاوراته ودفاعه وحتى في مغزى مواقفه إلى مفهوم الحياة ، فهو يقول" ينبغي أن نغتم بالحياة ونفرح بالموت لأننا نحيا لنموت ونموت لنحيا" ([2]) فالحياة في تصوره هي مصدر للهم والخضوع لمطالب الجسد واللذة، وأنها حياة محدودة وخالية من المعرفة الخالصة والوجود المثالي الخالد ، لذلك يجب تجاوزها أو بالأحرى نبذها والتطلع إلى الحياة الحقيقية والسعي إليها ، إلا أن ذلك لن يكون إلا عند من استطاع أن يكون سيدا على رغباته ومتطلبات البدن لا عبدا لها ، أي عند الفيلسوف الحق لأن هذا الأخير " يخلص النفس إلى أقصى درجة ممكنة من علائق الجسد ، وأنه لهذا يتميز عن كل البشر الآخرين "([3]) ويقول «سقراط» في مناسبة أخرى من نفس المحاورة مخاطبا "سيمياس" : " ألا ترى من غير شك أن من لا يجد لغة في هذه الأمور ولا يشارك فيها يقصد مطالب الجسد ، فإن حياته لا تستحق أن تعاش ، بل إن المرء يكاد يكون قريبا من الموت عندما لا يلقي بالا إلى اللذات التي تأتي عن طريق الجسد" ([4]) .

ولعل «سقراط» يريد من خلال كل هذا الوصول إلى فكرة جديدة تختلف عن الأفكار التي كان عليها المجتمع الأثيني ، والتي تعتبر أن الموت مصدرا للشر والتشاؤم والمصير المجهول وأن الإنسان يجب أن يسعى إلى الحياة الأخرى الأبدية ، والتي تكون في تصوره بعد الموت ،حيث يتم التخلص أو التحرر من قيود الجسد والارتقاء إلى مرتبة عالية وهي مرتبة المعرفة والفضيلة والحياة الحقة ، أو في رحاب الآلهة ، لذلك نجده يقول : " للحياة حدان أحدهما الأمل والثاني الأجل فبالأول بقاؤها وبالآخر فناؤها "([5]) .

إن هذه الفكرة السقراطية تجعلنا نفرق بين النهاية وبداية النهاية ،فموت الجسد وفناؤه هو نهاية له ونهاية لتلك الحياة الدنيوية ،أما بداية النهاية فهي نهاية للجسد وبداية للحياة الحقيقية وخلود للنفس ،هذه الأخيرة التي " يجب أن تحبس ذاتها فقط فيما هو أساسي حتى تصل إلى الصفاء كي تعيش مع

---

[1] - المرجع السابق ، ص 143 .
[2] - الشهرستاني، الملل والنحل ، مذكور سابقا ، ، ص 83 .
[3] - أفلاطون ، فيدون في خلود النفس ، ، مذكور سابقا ، ص 125 .
[4] - المرجع السابق ، ص 132 .
[5] - الشهر ستاني ، الملل والنحل ، ج 2 ، ص 83 .

الإله ... وذلك يدل على أن الموت ليس ذلك القبر أو الفناء ، وإنما تبدأ الحيـاة عند الموت أين تتحقق الحياة الحقيقية "([6]) .

بالرغم من التعريفات السابقة التي يمكن أن تعـبر عـن مفهـوم المـوت عند «سقراط» ، إلا أن ذلك هو بمثابة عملية انتقاء لأهم العبارات الـتي عـبر فيهـا «سـقراط» عـن المـوت ، لأن كـل مواقـف وأقـوال هـذا الحكيـم ارتبطت بهذا المفهوم ،فهو لم يكتفي بأن يقول بأن الموت هو ضد للحياة أو هو نهاية للجسـد وبقـاء للـروح ، أو أنـه لا يعتـبر مصـدرا للخـوف والتشـاؤم ... وإنمـا جعـل المـوت كقاعـدة أساسـية ينطلـق منهـا كـل موضـوع ،وربطـه بالمعرفــة وبالحقيقــة وبالقــانون والمدينــة وبــالخلود أي بالفلســفة ككــل فأصبحت هذه الأخيرة عبارة عن تفكير في الموت وتدريب عليه وممارسـة ، وهو ما سندرجه له في العناصر اللاحقـة . محـاولين بدايـة أن نوضـح كيـف فهم «سقراط» فكرة أن الموت هـو طريـق إلـى حيـاة أبديـة ، أو بـالأحرى كيف يرهن للجميع أنه لا يخشى الموت ،وإنما ينتظره بفـارغ الصـبر آملا فـي حياة أفضل مع الآلهة والحكماء والقضاة العادلين –كما كـان يقـول-؟ وكيـف أن الموت يعبر عن الفناء التام أم عن الحياة الجديدة والخلود ؟ .

[6] – Romono guardin i, la mort de Socrate ,interprétation des dialogues philosophique , euthyphron . apologie , griton, Phédon ,traduire de l’allemand par paul Ricœur , éditions du seuil . paris .p 166

المـوت والمـعرفة :

تواجهنا دائما إشكالية غياب كتابات «سقراط» فنعرض لفكـره وفلسـفته من خلال محاورات أفلاطون خاصة ، وقد اعتبر «سقراط» من طرف جميـع الخطابات الفكرية المعبر الحقيقي عن الفلسفة اليونانيـة الـتي تجـاوزت كـل الفلسفات الأخرى بل واعتبرت نقطة الانطلاق والبدء لكل فلسفة وفكر .

فسقراط يفـرض حضـوره بشـكل قـوي سـواء h ف ي مجـال الأخلاق أو المنهج أو المعرفة ...وحتى في مواقفه كان «سقراط» فريدا ومختلفا .

فارتبط فكره وتجسدت فلسفته بأصدق وأقوى موقف عرفـه التاريـخ ، تساوى إلى حد مـا مـع موقـف «الحلاج» لأن كـل منهـا آمـن بـالموت ليـس كمصير أو نهاية وهلاك وإنمـا كحيـاة حقيقيـة يجـب السـعي إليهـا لا الهـروب والخوف منها .

واختلف «سقراط» الحكيم أيضا فـي منهجـه وأسـلوبه وطريقـة تفكيـره وكانت رأيته إلى المعرفة و الحقيقة - أي الحكمة – رأيه جديـدة تجـاوزت فـي بعض الأحيان واختلفت في أحيان أخرى مواقف الطـبيعيين والسفسـطائيين خاصة ، وفي كل الأحوال فقـد حـاول أن يربـط بيـن مـواقفه وأفكـاره فأنتـج فلسفة خاصة به تميزت بنظرته للمعرفـة فـي علاقتهـا بالحقيقـة والفضـيلة ، وفق طابع جديد وخالص يفـرض علينـا أن نعـرض لـه بشـكل مـوجز قبـل أن نتطرق لموقف «سقراط» مـن المعرفـة وعلاقتهـا بـالموت ، أو بـالمفهوم السقراطي مدى تحقق المعرفة الخالصة من خلال الموت .

إن الكثير من القراءات تعترف بأن مذهب «سقراط» الفلسـفي هـو وليـد منهجه ([1]) وأن المنطق وجد عنده قبل أن يوجد عند " أرسطو " فهو " صـاحب الحد الكلي ومنهج الاستقراء ، وهو الانتقال من المحسوس إلى المعقول ومـن صغار الأشياء إلى كبارها للوصـول إلـى المعنـى الكلـي والماهيـة ، وهـذا هـو مذهب «سقراط» أو ما يسمى فلسفته التصويرية " ([2]) ،والمقصود مـن هـذا هو أن المعرفة الحقيقية لا تكون من خلال الجزئيات لأن هذه الأخيـرة ناقصـة

---

[1] - منهج «سقراط» يعتمد على دعامتين : أولهما التهكم : يبنى على تصنع الجهل والتظاهر بالتسليم لوجة الخصوم ثم الانتقال إلى إثارة الشكوك حولها ، بحيث يستخلص من آرائهم ومعتقداتهم فيقعون في التناقض والحرج ، ثانيهما التوليد : ويبنى على استنباط الحقيقة عن طريق توجيه الأسئلة إلى خصومه في نسق منطقي وترتيب فكره فيستخرجونها من نفوسهم وما طبعت عليه من معان فطرية .

مما يفرض علينا الانتقال مما هو جزئي إلى ما هو كلي ، وذلك لأن الوجود الحسي لشيء ما غير كافي لمعرفته معرفة كاملة أو بالأحرى لمعرفة ماهيته ، " فالمعرفة الحقيقية هي معرفة الماهيات ، والعلم يجب أن يقوم على إدراك واضح للماهيات "([1])،وهو ما يجسد بشكل واضح قيمة الماهيات في المعرفة باعتبار أنه انتقل من الجزائي إلى الكلي .

ويمكن أن نضيف هنا بأن «سقراط» أسس المعرفة على العقل وأعتبر أن هذا الأخير الطريق الوحيد للوصول إلى حقيقة الأشياء وماهيتها ،وبذلك يكون قد قدم نموذجا للمعرفة الموضوعية على خلاف السفسطائيين ([2]) الذين تجاوزوا بل قاموا بتدمير معايير الحقيقة الموضوعية واقتصاروا فقط على ما هو حسي ، فسقراط يقول " أن المعرفة ليست هي أحساسيات الفرد والتي تعني أن كل فرد يستطيع أن يعين الحقيقة كما يريد ، المعرفة تعني المعرفة بالأشياء كما هي على نحو موضوعي في استقلال عن الفرد ومثل هذه المعرفة هي معرفة لمفاهيم الأشياء" ([3]) .

وربما تظهر هذه الفكرة الأخيرة أكثر من خلال أسئلة «سقراط» التي كان يطرحها على محاوريه محاولا من خلالها معرفة ماهية الأشياء أو الوصول إلى مفاهيمها ،فكان يتساءل ما هي الفضيلة ؟ ، ما هو الخير ؟، ما هي العدالة؟ ، ما هو الموت؟ ... وغيرها من المفاهيم " إذ أن «سقراط» لا يبحث عما هي الشجاعة أو فضيلة أخرى كهذه ، عن شيء شفهي أو صفائي نحوي (أي الحرص المفرط على صفاء اللغة والأسلوب purisme) ليس ذلك في سبيل التحدث بشكل أفضل وإنما من أجل حسن العمل ، من أجل تأسيس مسلكنا على العقل بإقامة الثابت الذي يجب أن نفكر فيه للتصرف بعقلانية " ، ([4]) لذلك اهتم «سقراط» بالبحث في الكليات واهتم خاصة بالمواضيع التي تحيط بالإنسان في حياته العملية " فقد بدأ يتساءل عن المفاهيم الكلية للأشياء وعلى الأخص بالنسبة للإنسان ، لأنه موضوع عنايته الخاصة محاولا استخراج الإجابة عليها من نفس محاوريه "([5]) .

نلاحظ مما سبق الأهمية التي أعطاها «سقراط» للمفهوم أو الماهية واعتماده على العقل في تأسيس هذه المفاهيم وتكوينها ، وهو ما يشير بشكل أو بآخر إلى المعرفة أو نظرية المعرفة عنده ، والتي تتحدد معالمها من خلال المحاورات .

---

[2] - محمد عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، موسوعة فلسفية شاملة ، المجلد الأول ، عويدات للنشر والطباعة ، بيروت ، لبنان بدون طبعة ، بدون سنة ، ص 96 .

[1] - المرجع السابق ، ص 96 .

[2] - لقد ذهب السفسطائيون إلى أن الحقيقة هي الإدراك الحسي ، ولما كانت الإدراكات الحسية عند الأفراد المختلفين تتباين بالنسبة للموضوع نفسه فإنه يترتب على هذا أن الحقيقة مسألة ذوق الفرد ، لهذا ركزوا على مبدأ الذاتية وأن الحقيقة يجب تكون حقيقتي أنا ، وأن الصواب هو صوابي أنا ، ويجب أن يكون من نتائج تقديري لا من نتائج معايير مفروضة بالقدرة عليا من الخارج .

[3] - ولتر ستيس ، ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ، ص 101.

[4] - فرانسيس ولف، «سقراط» ، ترجمة منصور القاضي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنات ط 2، 2002 ، ص 68 .

[5] - محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1973، ص 81 .

وبالطبع يتوقف «سقراط» في نظريته هذه ليربط بينها وبين الموت سواء كمفهوم أو كممارسة ،وذلك لأن "نظريته لم تكن مطروحة لذتها ، بل هي مطروحة لغايات عملية وقد جعل «سقراط» النظرية خادما للممارسة "([1]).

فقد كان توجه «سقراط» في نظرية المعرفة إلى الإنسان ومن خلاله يتناول جميع الموضوعات الأخرى ،" وما قد يفرض من بحث عن الكون الطبيعي ظواهره أو ومجوداته الحية ، إنما هو مركز للإنسان وبيئته ومنشأته ونموه" ([2]).

كما سبق وذكرنا فإن «سقراط» ارتبط موته بفلسفته ومنهجه فلا نستطيع أن ندرس فكرة ما أو موضوع عند «سقراط» إلا و نجد حضورا لفكرة الموت ولو بشكل بسيط وموجز، ذلك لأن «سقراط» الحكيم اعتبر الموت غاية يجب السعي إليها للوصول إلى الخلاص ومن ثمة للوصول إلى المعرفة وأن الفلسفة في الحقيقة هي امتهان للموت وأن الفلاسفة الحقيقيين يتدربون على الموت .

فعندما يقول «سقراط» " أن المشتغلين حقيقة بالفلسفة يتدربون على الموت " نفهم مباشرة قيمة الموت كفكرة وكممارسة عنده ، وأن الفلسفة التي هي حب الحكمة وبالتالي المعرفة لا يمكن أن نصل إليها إلا عن طريق الموت ، إذ هو يربط بين الموت وبين المعرفة .

ولكن كيف يوضح «سقراط» هذه العلاقة ؟ وكيف للموت أن يعبر عن المعرفة الخالصة؟ وهل حقيقة المعرفة تقترن بالموت ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها تطرح نفسها بشكل أو بآخر ، وربما نجد الإجابة عنها في محاورة فيدون خاصة، وغيرها التي مزجت بين واقعة الموت وامتهان المعرفة .

وسنجد أنفسنا نتحدث عن «سقراط» فقط من خلال المحاورات والقراءات المتعددة ، فهو لم يكتب شيئا و " المشكل الأكثر صعوبة هو أن النقد التاريخي يؤكد على ضرورة حضور حديث المفكر الذي يصبغ الفلسفة والوعي بصبغة لا يمكن للزمن محوها" ([3]).

وأمام هذا سنحاول أن نقف عند العبارات التي يتكلم فيها «سقراط» عن المعرفة الخالصة وعن الموت بالطبع.

وقد يكون صعبا علينا في بعض الأحيان أن نفهم صمود وشجاعة بل سعادة «سقراط» في مواجهة الموت فكل كلماته وردود وأفعاله أو بالأحرى مناقشاته ودفاعه تعبر عن ذلك ، لكن ما هو السر ؟ هل هي فلسفة في الموت اختص بها «سقراط» ؟ وهل أراد أن يقدم حكمه في الموت ؟ أم أن ذلك هو جزء من رسالته أن يكون معلما حتى في آخر لحظات حياته وأصعبها ؟ أم أنه كان يعرف بأن الموت مصيره ولا يفيد الرفض أو المواجهة ؟ .

---

[1] - ولترستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ، ص 100.

[2] - محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، مذكور سابقا ،ص 80.

[3] - leon robin, la pensée grecque et les origines de l’esprit scientifique, édition albain Michel , paris - 1948.p 179

إن أغلب الكتابات إن لم نقل كلها تجعل من «سقراط» مثالا لمواجهة الموت في الفلسفة - كما اعتبر «الحلاج» في التصوف - فالموت حسب «سقراط» كما سبق وذكرنا هو انفصال النفس عن الجسد " أليس هو أن ينفرد الجسم بنفسه بعيدا عن النفس منفصلا عنها وأن النفس تتفرد من جهتها بذاتها بعيدا عن الجسم منعزلة عنه ، إن الموت ليس شيئا آخر غير هذا " ([1]) ، ومن هذا الانفصال الذي يتحدد بالموت ينطلق هذا الفيلسوف ليبين أن المعرفة الحقيقية لا تحدث إلا بعد الموت فهو يقول في فيدون : " وهكذا يظهر لنا بالفعل أنه إذا كان لنا أن نعرف على الإطلاق شيئا معرفة خالصة ، فإن علينا أن نبتعد عن الجسد وأن تتأمل النفس ذاتها الأشياء ذاتها ،وعند ذلك فيما يبدو فإننا سنحوز ما نهفو إليه ...ألا وهو الفكر بعد أن نموت ... أما بينما نحن أحياء فلا " ([2]) ،

فالجسد يشكل عائقا أمام المعرفة ويمنع النفس من الحصول على الحقيقة ، فسقراط يعتبرأن هذا الجزء المادي من الإنسان- أي الجسم -، لا يسمح للفيلسوف بأن يمتلك المعرفة وذلك من خلال مطالبه ، وأن الفيلسوف الحق يجب أن يتخلص من هذه المطالب إلا ما كان منها أساسيا " ذلك أن الجسم يضع أمامنا ألف عائق وعائق بسبب الحاجة التي فرضت علينا أن نطعمه وأن نرعاه وإلى جانب هذا فقد تصيبنا الأمراض وتمنعنا من متابعة صيدنا للوجود الحقيقي" ([3]).

كل هذه الصفات الخاصة بالجسم وغيرها تمثل بالنسبة للإنسان حاجزا بينه وبين المعرفة الخالصة فارتباط الجسد بالرغبة والشهوة والميول هو الذي جعل سقراط يؤكد على أن المعرفة لا يمكن الوصول إليها ، وحتى وإن تخلصنا من تأثير الجسد علينا في بعض الأحيان فإننا لن نستطيع تمييز الحقيقة ولكن " أسوأ ما في الأمر كله أنه حتى لو ترك لنا بعض الفراغ واتجاهنا نحو فحص شيء فإنه- أي الجسم- ينقص علينا من جديد في بحوثنا من كل ناحية حاملا معه الإزعاج والاضطراب ويذهلنا إلى حد أننا لا نستطيع بسببه تمييز الحقيقة" ([4]).

وقد يضن البعض من الناس العاديين وغير المهتمين بالمعرفة حسب «سقراط» أن إرضاء مطالب البدن وتلبية رغباته المتعددة والمختلفة هو أهم ما يجب أن يسعى إليه الإنسان وأن حياة الإنسان متعلقة بشكل ضروري بالمتع البدنية والجنسية ، " وتنشأ الصعوبة لدى الشخص الذي لم يحسن تدريبه فيخلط بين الاثنين – أي بين الروح والبدن – فقد يضن هؤلاء الأشخاص أن أثمن المكاسب وأعلاها هي التي ترضي البدن " ([5]) .

---

[1] - أفلاطون ، الأصول الأفلاطونية ، فيدون وكتاب التفاحة المنسوب إلى سقراط ، ترجمة وتعليق وتحقيق على سامي النشار وعباس الشربيني ، دار المعارف ، بدون طبعة ، بدون سنة ،ص 194 .

[2] - أفلاطون ، فيدون في خلود النفس، مذكور سابقا ، ص 130.

[3] - المرجع السابق ص 129 .

[4] - أفلاطون ، الأصول الأفلاطونية ، مذكور سابقا ، ص 140 .

[5] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة للتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا ص 20 .

أما التدريب فيقصد به «سقراط» في نصه هذا أن الإنسان يقوم بالتحضير والإعداد أو بالأحرى التدرب للحصول على نتيجة جيدة ، فالإنسان إذا أحسن الإعداد والتدرب فإنه سيكون متأكدا من النهاية الحسنة ، هذه الأخيرة التي تتجسد في الموت ، فالإنسان لن يخاف من الموت إذا استطاع أن يتدرب ويتجاوز كل مطالب البدن ،إلا أن ذلك لا يكون في إمكان الإنسان العادي حسب «سقراط»، و إنما الفلاسفة وحدهم هم القادرون على ذلك فهو يقول : " أما الفيلسوف فيحتقر مثل هذه المتع . والهم الذي لا ينقطع للفيلسوف لا بد أن يكون تحصيل المعرفة الخالصة بالحق ، الحق شيء لا يعرف إلا بالروح فقط" ([1]).

ويمكن أن نفهم هذا من خلال رؤية «سقراط» للعالم الطبيعي هذا الأخير الذي يخضع للتغير والتحول والنقصان ، ولأن البدن جزء منه فإن كل معرفة تحصل عليها الإنسان عن العالم الطبيعي ستكون معرفة ناقصة وغير كاملة و " وإذا اعتمدنا على حواسنا للمعرفة فإننا سنفقد كل صفات الوضوح واكتمال الرؤية وسنعيش في حال من الاضطراب لا تنتهي " ([2]) .

وهو ما يشير إلى أن الجسد لا يستطيع الوصول إلى المعرفة الخالصة وأن كل ما يعرفه ناقص وغير مكتمل ، أما الروح فهي التي تعبر عن الكمال وعن السعي إلى المعرفة الخالصة أو أنها بالأحرى من طبيعة هذه المعرفة على عكس الجسد القابل للفناء والتبدد في حين أن النفس خالدة وباقية مثلها مثل المعرفة، ويقول «سقراط» لأصدقائه :" إنني في الحقيقة مقتنع بأننا إذا كان لنا أن نحصل على المعرفة الخالصة بأي شيء فلا بد لنا أن نخلص من البدن وأن نتأمل الأشياء في ذاتها وبالروح بنفسها "([3]) .

فالروح هي خالصة ومستقلة ومكتملة الرؤية وهذه الخصائص هي نفسها خصائص المعرفة التي يحاول «سقراط» ان يبين طبيعتها وذلك من خلال الحوار ([4]) الذي أجراه مع سيمياس simmias حيث سأله إذا كان بإمكاننا أن نعرف الجمال أو الخير المطلق؟

فأجابه بأن ذلك ممكن

ثم سأله «سقراط» فيما إذا كان قد رأى بعينه أو بأي حاسة أخرى من جسمه ذلك

فأجاب بالنفي ، ويصل «سقراط» من ذلك إلى أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها من خلال الحواس أي البدن الخاضع للتغيير والنقصان إذ يقول " ولكن ذلك الذي يستطيع فعل هذا على أنقى وجه ، أليس هو من سيقترب من كل شيء بقدر الإمكان بالعقل ، وبالعقل وحده ، والذي لن يصطحب معه في فعل تعاقبه لا البصر ولا أية حاسة أخرى ، ولن يجعل واحدة منها ترتبط بهذه

---

[1] - المرجع السابق ، ص 20 .

[2] - المرجع السابق ، ص 21 .

[3] - المرجع السابق ، ص 21 .

[4] - الحوار موجود في كتابمحاورة فيدون في خلود النفس ، ص 127.

الحاسة ، بل سيستخدم العقل ذاته قائما بذاته ليجري وراء صيد الموجودات" ([1]).

فطبيعة الروح هي من طبيعة المعرفة باعتبار أن كل منهما يحمل نفس الخصائص المتمثلة في الكمال والوضوح واللازمانية " فالروح لا يمسها الموت والمعرفة هي من طبيعة الروح و لا يمكن تحصيلها إلا من خلال الموت باعتبار أن الروح هي تعبير عن الوجود الحقيقي والمعرفة بدون و لا يمكن تحصيلها بدون هذا الوجود"([2]) ، وتجدر الإشارة هنا إلى "نظرية التذكر " ([3]) التي من خلالها يحاول البرهنة على أن المعرفة موجودة في الروح ، هذه الأخيرة التي خضعت لولادات متعددة عرفت من خلالها كل شيء في هذا العالم وفي العوالم الأخرى ، فالإنسان لا يحصل معرفة وإنما يتذكر ما كان يعرفه فقط - سنقدم تفصيلا لهذه النظرية فيما بعد - فسعي الروح وراء المعرفة هو سعي وراء شيء كانت تعرفه مسبقا ، وأن الوصول للحقيقة لا يكون من العدم ، وإنما الروح تكون قد عرفت ذلك باعتبار أنها خضعت لولادات متعددة فهي تتذكر كل ما عرفته وبالتالي فإنه يجب اعتبار الزمانية هي مجال غير الواقعي أو غير الحقيقي" ([4]).

وهناك نقطة مهمة عند «سقراط» وهي أن المعرفة هي مصدر قوة باعتبار أنها خالصة وصفاتها من صفات الروح فإنها بذلك تساعدنا على مواجهة الموت أو بالأحرى على فهمه والتخلص من القلق والخوف الذي قد يسببه ،وبالتالي تجاوزه واعتباره طريق عبور إلى حياة أخرى أرقى وأعلى بجوار الآلهة ، فالمعرفة واكتسابها أو بالأحرى امتهانها هو الذي يحدد حالة الإنسان بعد الموت فسقراط يقول أننا "سنبقى بعد الموت رغم أي شيء ولكن بدون المعرفة نتعرض لاحتمال أن نبقى في مستوى يقل عن مستوى الإنسانية " لذلك فالفلاسفة الحقيقيون الذين يمتلكون المعرفة ويتدربون عليها ويبتعدون عن مطالب الجسد والميول ،وعن المرئي يصلون إلى مرحلة الاتصال مع الإله والخلاص ، فالمعرفة هي وسيلة من وسائل تحديد علاقة الإنسان بالموت وفهمه له ومن ثمة حالته بعد الموت .

وبذلك تبدو فكرة الموت حسب التصور السقراطي تعبير عن حياة من نوع آخر لا يعرفها ولا يصل إليها إلا من استطاع فهم حقيقة وجوده ، كذات تسعى إلى المعرفة الخالصة وتبتعد قدر الإمكان عن مطالب الجسد ، فبعدما كنا نفهم الموت على أنه نهاية لحياة لا نعرف ما يكون بعدها وبعدما كان الأثينيون يعتبرونه مصدرا للشر والقلق والخوف والغموض حول الذي يمكن أن يحدث بعده ، ومزوجه بالأساطير وهو ما يزيده غموضا ، جاء «سقراط»

---

[1] - أفلاطون ، فيدون في خلود الروح ، مذكور سابقا، ص 129 .

[2]- Romono guardini , la mort de Socrate ,interprétation des dialogues philosophique , euthyphron – apologie , griton, Phédon ,traduire de l'allemand par paul Ricœur , éditions du seuil . paris,p172

[3] - تقول هذه النظرية أن التعلم ما هو في الواقع إلا تذكرا و النفس قد علمت من قبل ارتباطها بالبدن فهناك أسرار دينية تقول أن نفس الإنسان لا تفنى وإنما تنتقل من جسد إلى آخر ، وخلال وجودها هذا كله عرفت كل شيء في هذا العالم وفي العالم الذهني ، وهكذا فإنه من الطبيعي أنها عرفت شيئا واحدا فستعرف (أي تتذكر) إبتداءا منه كل شيء .

[4] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود ، مذكور سابقا ، ص 23 .

الأكثر أثينية من كل الاثنتين جاء بمفهوم جديد للموت ليس بالقول فقط وإنما بالقول والموقف وهو ما أعطاه قوة وحضورا بارزين ضمن الخطابات الفلسفية إلى يومنا هذا .

فالحكيم «سقراط» يعلمنا كيف نفهم الموت أو بالأحرى كيف نموت ، لأن الإنسان إذا فهم بأن الموت كائن وحادث بدون شك فإن فهمه سيكون عاديا لكنه إذا أدرك حقيقة الموت وأنه من خلاله سينتقل إلى حياة أفضل في أحضان الحقيقة أين سيصل إلى المعرفة الخالصة والكمال،وبالتالي إلى الخلود ، فإنه بذلك سيكون فيلسوفا يتدرب على الموت وانه لا محالة سيرتقي إلى مرتبة عالية وستصعد روحه مع الإله لأن الجسد ومطالبه كلها هي تعبير عن التغير والزمانية والمعرفة الناقصة ، فإذا ما نبذه المرء وتجاوزه وصل إلى مرتبة الفيلسوف الذي يتدرب على الموت .

وكان «سقراط» يعلم الناس كيف يمارسون حياتهم اليومية وذلك بابتعادهم عن كل ما هو مرئي ومتغير أي البدن ومطالبه والعمل على فعل الخير والفضيلة والأخلاق ، واحترام القانون والواجب ، وطاعة الآلهة ، وهذا هو بالضبط تدرب على الموت وسعي إليه لنيل الخلاص والوصول إلى المعرفة .

ولو أن «سقراط» كان مسلما لقلنا عنه أنه يقوم بمجاهدة النفس والرياضة الروحية -كما يقوم بها المتصوفة - في مكان ما سميه هو التدرب ،أو أنه كان يبحث عن الخلاص من هذه الحياة ويبحث عن حياة أخرى أسمى وأرقى تماما كما يسعى المتصوفة المسلمون ، وسنتطرق لهذه الفكرة بنوع من التفضيل في المقارنة بين «الحلاج» و «سقراط» ، لمعرفة فيما إذا كان «سقراط» صوفيا كصوفية «الحلاج» وهذا الأخير فيلسوفا ؟ أم أن كل منهما يعبر عن اتجاه مختلف التقى فقط في حادثة موتها ؟

الموت والمدينة :

تتجاوز حادثة موت «سقراط» حدود البحث عن حياة خالدة والأمل في نعيم الآلهة والالتقاء بالصالحين والحكماء والقضاة الحقيقيين إلى حدود الواقع العملي الذي لا ينجي «سقراط» من الموت هذا الأخير الذي كان في سبيل القانون واحترامه وقدسيه المدينة .

فقد كان يعلم هذا الحكيم بأن الحكم الذي أصدر في حقه جائر ،وأنه بإمكانه الرفض أو التخفيف باستخدام حكمته وفطنته ، بالإضافة إلى أن أصدقائه هيئوا له الفرصة للهرب ولكنه رفض، فقد قال له كريتون "Cri ton " يوجد أصدقاء في الخارج وهم على استعداد لاستقباله وآخرون في أثينا يهتمون بتنظيم تفاصيل العملية " لكن «سقراط» آثر الموت على الخروج عن قانون المدينة لأنه كان يؤمن به وبعدالته وبضرورة إطاعته فكانت إجابته للذين طلبوا منه الهرب : " لقد حكم على الأثينيون بشكل شرعي بعد محاكمة منصفة فمن العدل أن أكون أمينا على قوانينهم قابلا بحكمهم بعدم الهرب " ([1]).

إذا لماذا هذا الرفض ؟ ولماذا يقبل «سقراط» بهذا الحكم ؟ هل هو نوع من الانتحار أم الاستسلام أم ماذا ؟ ما هو الغرض من ذلك هل مبادئ «سقراط» لا تسمح له برفض قانون المدينة؟

هي بعض من الأسئلة التي تفرض نفسها بشكل أو بآخر على كل من يتأمل أو حتى يقرأ فقط قصة «سقراط» إن صح تسميتها كذلك فهي أقرب الأسطورة منها إلى الواقع .

لكن لا يهم إن كانت أسطورة أم حقيقة بل المهم في كل ذلك هو فهم خلفياتها ، ومعرفة دوافعها ن لا يجاد تحليل لها أو قراءتها ضمن الخطاب الفلسفي والأكثر من ذلك تبريرها .

فقد تبدوا حادثة موت «سقراط» جزء من حياته بأكملها لكنها في الحقيقة تعبر عن أكبر موقف فلسفي قام به «سقراط» عبر من خلاله عن كل رغباته ، وعن الرسالة التي كلف بتبليغها لشباب أثينا " وهو يواصل عمله

---

[1] - فرانسيس ولف ، سقراط، مذكور سابقا،ص 29.

اليومي قد اعتبر نفسه دون شك منشغلا برسالة مفروضة عليه من جانب الرب على نحو غير طبيعي " ([1]) .

فمفهوم «سقراط» للمدينة يختلف بشكل جذري عن جميع المفاهيم الأخرى ، لأننا اعتدنا أن نعرفها على أنها جمع من الناس يستقر في رقعة جغرافية ما ويخضع لنظام سياسي معين ، وهذا هو المفهوم الذي كان يعتده الأثينيون حيث كانت في " ذاكرتهم تلك المجموعة من التقاليد المتواترة ومن السلطات التي يتمتع بها في النظام الديمقراطي مجموع المواطنين "([2]).

إلا أن «سقراط» كان يعبر عنها من خلال مواطنيها وأولوية الجمهور على المصالح الفردية التي كان ينادي بها السفسطائيون ، لذلك نجده يحاول أن يوصل رسالة من خلال الاتصال بالجمهور في الاجتماعات العمومية ، وكان يؤكد في الكثير من المناسبات بأنه أرسل لخدمة المدينة وخدمة شبابها فهو يقول في محاورة الدفاع " إني الرجل الذي وهبه الإله للمدينة فإنكم ستدركون هذا على ضوء ما يلي : في عدم اهتمامي بسائر شؤوني وفي تحملي بشجاعة لما نتج عن إهمالي لشؤوني الخاصة ، وذلك منذ سنين عديدة ، بينما شغلت نفسي على الدوام بشؤونكم ، معاملا لكم منكم بشخصه كأب أو أخ ..."([3]) فمن هذا النص يمكن أن نفهم موقف «سقراط» من المدينة واهتمامه بأفرادها أكثر من اهتمامه بأي موضوع آخر حتى بنفسه .

هذه المدينة التي يحترمها «سقراط» ويحترم قانونها خاصة ،وبالرغم من أن قضاتها حكموا عليه بالإعدام إلا أنه احترم ذلك واعتبر أنه من الواجب إطاعة هذا القانون .

حيث يذكر أن «سقراط» كان وطنيا صادقا وجنديا باسلا أشترك في حربين ، دامت الأولى من 432 إلى 429 ووقعت الثانية سنة 422 "([4]) وهو بذلك قام بواجبه اتجاه أثينا دون تراجع أو خوف ، فبرهن على وفائه لوطنه ، وليس هذا فحسب بل كان يتجول في سوق المدينة وشوارعها بكل تواضع رغبة منه في إصلاح ما فسد من أحوال الشباب من جراء أفكار السفسطائيين " ويبصرهم بالحق والحق ليهيئ للبلد مستقبلا طيبا على أيديهم " ([5]) .

وقد شارك في السياسة فكان عضوا في مجلس الشيوخ وذلك بعد انتخابه فكانت مشاركته عادلة ونابعة من قيم أخلاقية " فعرف بالنزاهة واستقلال الرأي بين الديمقراطيين والأرستقراطيين وكانت له مواقف مشهورة عبر فيها بالحق والعدل مستهدفا للخطر صامدا للهياج "([6]).

قد تبدو كل هذه الأفكار السابقة وكأنها تأريخ لحياة «سقراط» وعلاقته بالمدينة ، لكنها في الحقيقة توضح مدى قوة هذه العلاقة في تبيان المواقف

[1] - ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكو سابقا، ص 90.

[2] - أفلاطون، محاكمة سقراط،محاورات اوطيفرون،الدفاع،اقريطون،ترجمة وتقديم عزت قرني،دار قباء للطباعةوالنشر والتوزيع،ط 1 ،2001،القاهرة،ص 93 .

[3] - المرجع السابق ، ص 123 .

[4] يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مذكور سابقا،ص 51

[5] - المرجع السابق ص 51.

[6] - المرجع السابق ، ص 51 .

الفلسفية ، وفي ارتباط الموت كتجربة و كمفهوم بقانون المدينة ومحكمتها وفي النهاية بعدالتها .

فسقراط إيمانا منه بضرورة طاعة قانون أثينا ، المدينة التي ولد ونشأ فيها وأحب سكانها واحترمهم ، ولأنه كان يمثل النموذج -أو بالأحرى يقدم النموذج - الذي يجب أن يحتذي به شباب المدينة خاصة وسكانها عامة ، واعتقاده بالرسالة التي كان واجب عليه تأديتها ، واهتمامه خاصة فيما إذا كانت أعماله التي يقوم بها على صواب أم على خطأ ، فقد كان يقول " إنكم تخطئون إذا ضننتم أن أي إنسان له القدر من القيمة يجب أن يمضي وقته في النظر في احتمالات الحياة والموت فإنه عليه فقط عندما يؤدي أي عمل أن ينظر في إذا كان ما عمله صواب أم خطاء "([1])، إيمانا بكل هذا قبل حكم الإعدام أي قبل قانون المدينة وأطاعه ، ورآى أن الخروج عنه هو خروج عن المبادئ الأخلاقية وبالتالي خروج عن ما كان يلقنه للناس ويعلمهم إياه .

ويمكن أن نفهم موقف «سقراط» أكثر إذا ما نظرنا إلى الوضعية التي كانت تعيشها أثينا، وخاصة الفترة التي عاش فيها «سقراط» أو بالأحرى بماذا كانت تؤمن ولأي قانون كانت تشرع ، ما هي أهم المواضيع التي كان يهتم بها أفرادها ؟ وما هو موقع القيمة الأخلاقية فيها ؟

لأن هذه الأوضاع شكلت الأرضية الخصبة التي انطلق منها «سقراط» في تعليم الناس وتلقينهم للحكمة والقيم الأخلاقية ، ومن خلالهم استطاع أن ينشر التعاليم التي كان يؤمن بها ، حيث اعتقد أنه موكل من طرف الإله أو واجب عليه تأدية ذلك كرسالة أمر بها .

فأثينا مدينة القرن الخامس قبل الميلاد ومسقط رأس «سقراط» فيها عاش وترعرع وتعلق بها وبسكانها ونشر أفكاره ، إلى درجة أنه أثر الموت على أن يخرج عن حكمها " فهو يرى أن القوانين العادلة لا مصدر لها إلا العقل ، وفوق أنها لا تخالف طبيعة الإنسان ، فهي متفقة كل الإتقان مع قوانين لم تكتب رسمها الإله في قلوب البشر" ([2]).

لقد كانت أثينا تعيش نزاعات وصراعات من جراء الحروب ، حيث اتسم القرن الخامس " الذي اتسم بخاصة بما يقارب ثلاثين عاما من نزاع دموي ضد التحالف الذي قادته سابرتا SPARTE في حرب بدأت بوباء رهيب ، وحصلت بشكل متقطع صراعات أهلية انتهت بالخراب "([3])،فكثرت الصراعات السياسية وأصبح الأسياد هم الذين يعطون المثال على الفساد لأنهم كانوا يبحثون عن أهدافهم الشخصية ، فتراجعت القيم الأخلاقية وتصدعت المعتقدات الاجتماعية ، وأصبحت الأفكار مضطربة ، واتجهت إلى الفساد وإلى المصالح الفردية ، فكيف " يمكن أن يكون هناك إيمان بالقيم

---

[1] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا، ص 18 .

[2] - محمد بيطار ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مقدمات ومذاهب ،مذكور سابقا، ص 83.

[3] - فرانسيس ولف ، سقراط ، مرجع مذكور سابقا، ص 35 .

المشتركة عندما لا يفكر الرؤساء إلا برفعتهم الشخصية وعندما يعطي السياسيون المثال على الفساد وعندما يبدي الجميع اهتماما بفردانية individualisme مجنونة " [1].

فالأخلاق كانت تندرج ضمن المعتقدات الماضية الأكثر ثباتا ولا يناقشها الناس ، وعندئذ "أنكروا ما عرف قبلهم من آلهة ورأوا أن الآلهة الذين ورد ذكره في ما دون الشعراء من شعر وما وضعوا من أساطير تلحق بهم ألوانا من النقص وصنوفا من المجون والفجور لا يستحقون شيئا من القداسة ولا ينبغي أن يدان لهم بعبادة أو أي التزام "[2]، وذلك لأنهم كانوا يعيشون في ضل صراع سياسي داخلي من جراء حروب عنيفة كحرب "بيلوبونيز Péloponnèse "هذه الأخيرة التي أثرت درجت عنفها على طبيعة التفكير، فغاب السعي وراء المصالح المشتركة .

وفي هذه المرحلة من الصراع السياسي والسعي وراء المصالح الفردية " وبانهيار هاتين الدعامتين ، دعامة العقيدة الدينية والحكم الأرستقراطي ، انفك المجتمع اليوناني من عقله وانطلق بشراسة ونهم يحطم القوانين ويقضي على الأخلاق ويسخر من الآلهة "[3] .

في ضل هذا كله ظهر «سقراط» بأفكاره ونقا شاته محاولا أن يغير أو أن يوجه فكر أهل أثينا نحو القيم الأخلاقية والواجب والفضيلة ،أي أنه نقل التفكير من الطبيعيات إلى الأخلاق والجانب العملي وذلك بأن " يستعيد التساؤلات الجوهرية ويضعها م ن الآن فصاعدا في المقياس العملي البشري ، لا أن يطرح أبدا سؤال ما هو في منطق محض أو في التأتأة الحشوية (ما معنى الكائن ومن هو؟) وإنما استعادة التساؤل الأساسي في كرة ما يسميه الإغريقيون éthos أي التصرفات والمسالك" [4] ،وبذلك كانت أثينا تمثل بالنسبة لسقراط محور النقاش التساؤل والأكثر من ذلك الوصول إلى نتيجة من خلال أسئلة متواصلة على خلاف التأمل في الطبيعة ، فهو يقول لفدر phèdre " إنك تعلم أنني أحب أن أتثقف ، وعلى هذا الأساس فإن الحقل والأشجار لا تسمح لي بأن أتعلم أي شيء وإنما أناس المدينة " [5] .

فهذه إشارة واضحة إلى اتجاه «سقراط» نحو المدينة في غليانها وأزماتها وفي حوارات أفرادها وتساؤلاتهم وانشغالاتهم ... فاعتبرها المكان الوحيد الذي يستطيع أن يعبر فيه عن أفكاره وأن يتساءل ويتحاور في أمور أثينا مع أفرادها ، وبالتالي أن يبلغ رسالته التي كلفته حياته ، وما تراجع عنها إيمانا منه بهذا الواجب ، وبالتالي بقانون المدينة ، فأسس فيها علم الأخلاق ومن خلاله عبر عن جميع المفاهيم .

---

[1] - المرجع السابق ،ص 35 .

[2] - محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 67 .

[3] - المرجع السابق ، ص 68 .

[4] - فرانسيس ولف ، سقراط ، مذكور يسابقا ، ص 34 .

[5] - المرجع السابق ، ص 37 .

فبعدما كان الأثينيون يعملون على أن يكونا شجعانا وفضلاء ويكتفون بمعرفة الواجب، طرح «سقراط» أسئلة جديدة أكثر عمقا وأكثر عملية فتساءل ما هي الشجاعة؟ وما هي الفضيلة ؟ وما هو الواجب ؟ وتساءل أيضا عن ما هية الموت ؟ .

وطرح «سقراط» لهذه الفكرة الأخيرة أي الموت ليس كمفهوم فقط أو كمجرد حوار و إنما كممارسة وتدرب ، وأثبت أمام كل طبقات المدينة من الحكام والقضاة أن الموت هو ممارسة من خلال التجربة التي عاشها منذ لحظة الحكم عليه وقبوله لهذا الحكم إلى اللحظة التي تجرع فيها السم ، محاولا في كل ذلك إصلاح ما فسد من أفكار أهل المدينة خاصة وأن السفسطائيين كانوا " صورة صادقة لهذا العصر ومرآة صافية انعكست فيها صورة ذلك كله، وأصبح اسمها رمزا للأنانية والمغالطة والوصولية والأحادية وكل ما نتصوره في مجتمع متفكك تشيع فيه كل هذه المعاني الرديئة والخصال الدنيئة " ([1]) ،فقد كانت هذه الجماعة تنشر بعض الأفكار اختلفت إلى حد كبير مع المبادئ الأخلاقية السقراطية .

وكما سبق وذكرنا عن «سقراط» أنه آثر الموت على أن يخالف قانون المدينة أو يخرج عن حكمها فهو يصرح قائلا " ولكنني رأيت أنه يجب عليا أن أفضل المخاطرة واقفا في صف القانون والعدل على أن أتخذ واقفا معكم وخشية السجن أو الموت ، قرارات عادلة " ([2]).

لذلك ارتبط موته بفكرة الواجب نحو المدينة وضرورة قبول قانونها مهما كان وخدمتها ، فهو يرى أن " من يحترم القوانين العادلة فإنما هو في الواقع يحترم العقل والنظام الإلهيين "([3])

أما الإنسان إذا اخترق قانونا إلهيا أو حكما خلقيا وخرج عن نظام المدينة وخالف ربا من الأرباب فإنه سيعرض نفسه للحرمان من التمتع بالمكانة التي كان يمكن أن ينعم بها بعد الموت في ظل الآلهة وقد يعرض نفسه لأن يكون في حال أقل مستوى من حال الإنسانية ،وذلك طبعا كما يقول " لأننا ببساطة تخلينا عن حريتنا في تحقيق الاتصال الأعلى واخترنا بدلا من ذلك أن نوجد على مستوى التغيير والزمانية " ([4]).

فسقراط يحاول أن يجعل المدينة في مستوى أعلى وأن يعطيها حقها من الواجب والاحترام ، لذلك نجده في محاورة "الدفاع " يجعل السياسة في المرتبة الثانية بعد الأخلاق ، ويعتبر أن الاشتغال بها هو انحراف عن العدل ، الأمر الذي فرض عليه الاهتمام بأمور المدينة والشباب على الاشتغال بالسياسية ، فقد كان يقول : " فاعلموا علم اليقين أيها اللاتينيون أنني لو كنت دخلت عالم السياسة لكان قد قضي عليا ولما أمكنني أن أكون ذا نفع لا لكم

---

[1] - محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 68.

[2] -أفلاطون محاكمة سقراط، مذكور سابقا ،ص 125.

[3] - محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية مقدمات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 83.

[4] - جيمس ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنسان في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا، 28.

ولا لنفسي " [1]، وقد كان يقول ذلك لأنه تيقن من أن السياسة مليئة بالظلم، والمشتغل بها لن يكون عادلا بالضرورة

وكان أيضا يؤكد بأن حياته ستكون ثمنا لتلك الرسالة التي كان مكلف بها ، ففي تصوره " ليس هناك من بشر قادر على إنقاذ حياته إن هو عارضكم معارضة حقيقية أنتم أو أي جمعية شعبية أخرى أو حاول منع كثير من ألوان الظلم ومخالفات القانون من أن تحدث في المدينة ، فلا مناص لمن يريد الجهاد في سبيل العدل جهادا فعليا ، إن هو أراد أن يبقي عن حياته لفترة من الزمان ولو قصرت ، لا مناص له من أن يعيش حياته الخاصة فقط وأن لا يكون له اشتراك في الحياة العامة " [2]

يبدوا من خلال ما سبق أن «سقراط» كان يحاول أن يعلم الناس حتى في أخر لحظات حياته أو بالأحرى في المراحل الحاسمة من محاكمته أين كان باستطاعته أن يستعمل حكمته وأسلوبه الفلسفي لتبرير نفسه أو على الأقل تخفيف الحكم بطريقة ما ، لكنه آثر الموت على أن يستعطف القضاة أو يخالف القانون لأن هذا بدوره يخالف مبادئ «سقراط» ولا يتوافق مع رسالته .

فهو يقول بكل فخر " فما أدنت افتقارا إلي خطبي في الحق بل افتقارا إلى الجسارة والوقاحة ... ولأنني أفضل كثيرا أن أموت بعد أن أكون قد دافعت عن نفسي هكذا، على أن أعيش بفضل تلك الأفعال " [3].

ويمكن أن نفهم موقف«سقراط» أكثر من خلال محاورة الدفاع فهي تشتمل على أهم العبارات التي وجهها إلى القضاة معبرا من خلالها عن صدق رسالته وأنه لا يستطيع أن يتخلى عن مبادئه ولا أن يتوسل أو يتراجع فقد قال : " ليس تحديا مني أيها الأثينيون ولا استهانة بكم ،أما وإن كنت أجابه الموت ثابت الأقدام أم لا فهذا أمر آخر " [4]، ثم يضيف في نفس الفقرة ليبين أهمية و سمعة المدينة وضرورة الحفاظ على مبادئها " ... ولكنني لا أضن من أجل سمعتي وشرفي وسمعتكم وشرف المدينة كلها ، لا أضن أنه من الجدير بي أن أفعل هذا ..." [5].

ويواصل «سقراط» في عرض موقفه بكل شجاعة بالرغم من الحكم الجائر في حقه رغبة منه في تعليم الشباب عدم مخالفة القانون والامتثال لأحكام القاضي لأن هذا الأخير " لا يوزع العدل بحسب ما يحلوا له بل أن يحكم بحسب القوانين " [6] ،هذه الأخيرة التي من واجب جميع الأثينيين طاعتها ، فذلك يساهم في بسط الحق والعدالة وبالتالي فهو يدعو الناس إلى احترام القضاة وذلك كي "لا نعودهم - أي القضاة – على الحنث باليمين ولا أن تتعودوا أنتم على ذلك ، ففي كلتا الحالتين سيكون هذا دليل منا على قلة الورع ، فلا

---

[1] - أفلاطون، محاكمة سقراط، مذكور سابقا ،ص 124.

[2] - المرجع السابق ،ص 124.

[3] - المرجع السابق ،ص 133.

[4] - المرجع السابق ،ص 128.

[5] - المرجع السابق ،ص 128.

[6] - المرجع السابق ،ص 129.

تنتظروا مني أيها الأثينيون أن أفرض على نفسي أمامكم ألوانا من السلوك لا أجد فيها جمالا ولا عدلا ولا ورعا وخاصة بحقي زيوس " [1]

وبذلك اقترنت أثينا بسقراط وبموته وأنه الوحيد -ولو لم يكتب أي شئا- الذي استطاع أن يحول تفكير أثينا ويحرك عواطف أفرادها ، ويصنع الأسطورة .

فالكثير من الدراسات تعتبر أن حكم أثينا على «سقراط» بالموت هو في الحقيقة حكما على نفسها بالموت ويمكن أن نقول مع فرانسيس ولف : " إن الحكم بالموت على المواطن الفيلسوف «سقراط» كان كما لو أن الدولة الأثينية للقرن الخامس قلبت صفحة ذروتها قد وقعت قرار موتها هي " [2]

الموت عند الحلاج [3]

---

[1] - كل هذه الاقوال موجودة في محاورة الدفاع

[2]- فرانسيس ولف ، سقراط ، مرجع مذكور سابقا، ص 43.

[3] - الحسين بن منصور الحاج و يكني أبا المغيث , و قيل أبا عبد الله كان جده مجوسيا , من أهل بيضاء و فارس . ولد سنة (244 ه-857 م)مسقط رأسه الطور في الشمال الشرقي من البيضاء في مقاطعة فارس بايران ، كان يشتغل بالحلج. قد إرتحل للعمل في منطقة النسيج الممتدة من تستر حتى واسط على الدجلة , و هي مدينة أسسها العرب و فيها نسي الطفل لغته الفارسية , و كانت واسط على مدهب ابن حنبل و مركز المدرسة مشهورة من القراء , فقرأ القران حتى سن الثانية عشر إلى أن حفظه.

تعلم على يد سهل التستري ثم تركه و هو في سن العشرين , إرتحل إلى البصرة ليتقلى خرقة الصوفية من يد عمر المكي و في هده الفترة تزوج بأم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع البصري و لم يتزوج بغيرها , فأثر هدا الزواج ثلاثة أبناء و بنتا واحدة , و كان يعتمد على صهره في كفل معاشهم و كان كرنبائيا، كما خلف هدا الزواج فتنة بينه و بين عمر المكي , فأقام الحلاج في البصرة و هو ما أثار حوله الأقوال بأنه ينزع إلى الثورة , و ظل في البصرة يتزهد و يتعبد منتهجا المدهب السني .

و قد كانت هناك خصومة بين شيخه المكي و صهره قصمد عليهما لأن الجنيد نصحه بأن يصبر ، فالحلاج إستشاره في أمرهما , لكنه لم يستطع الصبر على النزاع القائم بينهما فرحل إلى مكة , و يروى أن هده الفترة تتوافق مع فتنة الزنج

و أدى فريضة الحج للمرة الأولى , و هناك ندر نفسه بالبقاء عاما في حالة صوم و صمت دائمتين حيث يذكر المستشرق ماسينيون : إن الحلاج بعد أن تلقى علوم الصوفية على يد سهل التستري و تلقى خرقة الصوفية عن عمر توجه إلى مكة مرتين و ظل بصحن الحرم صائما لمدة عام , مثلما فعلت مريم بنت عمران و استعداد لميلاد الكلمة فيه,ثم اعتصم لقمة جبل أبي قبيس يتعبد و يخلو بنفسه فانقطعت صلته بعمر المكي و كون أتباعا كثر فكان المريدون به يرفدون إليه , و كان يعض الناس بحرية و يكشف عن الأسرار و هو ما أثارحفيضة الصوفية .

ثم إرتحل إلى خرسان و واصل دعوته و بعد خمس سنوات عاد إلى الأهواز و سانده الوزير حمد القنائي فأقام ببغداد و عاد بعد دلك إلى مكة حاجا للمرة الثانية مع أربعمائة من تلاميده و من ثمة إستأنف أسفاره فقام برحلة كبيرة ثانية ابعد من الأولى في منطقة خارج شفاعة محمد , في بلاد كفار الهند و بوذية التركستان , فوصلها بطريق البحر , و صعد نهر السند و ذهب إلى ملتان إلى كشمير و مضى في طريقه صاعدا ناحية الشمال الشرقي حتى طرفان (ماسين) مع القوافل الاهوازية , ثم عاد إلي مكة حاجا للمرة الثالثة و الأخيرة , و بعد حجه عاد إلى بغداد من جديد و يقال أن الفقيه السني محمد بن داوود كان قاضيا لمحكمة بغداد طالب برفع أمر الحلاج إلى المحكمة و طالب بقتله , إلا أن قاضيا أخر عارضه و هو بن سريج و اعتبر أن الجانب الروحي الصوفي ليس من اختصاص الحاكم , و في هده الفترة يقال أن الحلاج نطق بقوله" أنا الحق "

و في حوالي سنة (296 ه – 908 م) أصدر الوزير ابن الفرات أمرا بالقبض عليه و على إتباعه , و قبض على أربعة من أتباعه , و بعد ثلاث سنوات قبض عليه و جيء به إلى بغداد فبدأت قضيته التي استمرت تسع سنوات .

و في سنة (301 ه – 913 م) جاء وزير جديد و هو إبن عيسى القنائي فأفسد القضية و أطلق سراح تلاميذ الحلاج , و حبس هذا الأخير في دار السلطان و سمح له بأن يعض المسجونين , و يقال أن الخليفة قد شفاه الحلاج في نهاية 303ه من أزمة حمى، و في سنة(305)أحيا ببغاء ولي العهد الراضي محمد بن جعفر المقتدر، و قد كتب الحلاج و هو في سجنه مؤلفاته الأخيرة و هي أهم ما وضع وقد بلغت حوالي ثمانية و أربعون كتابا من بينها كتاب طاسين الأزل , و الصيهور في نقص الد يهو و الأبد و المابود و كيف كان و كيف يكون و كتاب هوهو و لا كيف .و غيرها.

و في الثالث و العشرين من ذي القعدة أعلنت الأبواق أن الوزير يتهيأ لتنفيد الإعدام فأسلم الى رئيس الشرطة ابن عبد الصمد و في المساء ظل الحلاج في حبسه يوطن نفسه و يشجعها على الاستشهاد و يتوقع لنفسه البعث المجيد،

------و في الرابع و العشرين ..... حرسان و يحضره مجلس الشرطة و أمام جمع غير جيء بالحلاج و ضرب ألف سوط و قطعت يداه و رجلاه و صلب و هو لا يزال حيا و في الغد قطع رأسه و احرس جسده و رمي رماده في المفر و نصب الرأس يومين على الجسر ثم طيف به في خرسان

و سوف نختصر كل حياته في الرواية التي ذكرت في الكتاب تابع بغداد على اللسان إبن الحلاج حيث يندل البغدادي حدثني أبو سعيد مسعود , حدثني أبو سعيد مسعود بن ناصر بن أبي زيد السجستاني , أنبأنا أبو عبد الله محمد عبد الله بن عبيد الله باكوا الشيرازي – بنيسابور – أخبرني أحمد بن حسين ابن منصور بنستر قال : مولد والدي الحسين بن منصور بالبيضاء في موضع يقال له الطور , و نشأ بتستر , و تلمد لسهل بن عبد الله التستري سنتين , ثم صعد إلى بغداد و كان بالأوقات يمشي بخرقتين مصبغ , و يلبس بالأوقات الدراعة و العمامة , و يمشي بالقباء أيضا على ز الجند , و أول ما سافر من تستر إلى البصرة كان له ثمان عشرة سنة , ثم خرج بخرقتين إلى عمرو بن عثمان المكي , و إلى الجنيد بن محمد , و أقام مع عمرو المكي ثمانية عشر شهرا , ثم تزوج بوالدتي أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع , و تغيرعمرو بن عثمان من تزويجه , و جرى بين عمرو و بين أبي يعقوب وحشة عظيمة بدلك السبب . ثم إختلف والدي إلى الجنيد بن محمد و عرض عليه ما فيه من الادية لأجل ما يجري بين أبي يعقوب و بين عمرو , فأمره بالسكون و المراعاة , فصبر على دلك مدة . ثم خرج إلى مكة و جاور سنة و رجع

الحسين بن منصور

إلى بغداد مع جماعة من الفقراء الصوفية , فقصد الجنيد بن محمد و سأله عن مسألة فلم يجبه , و نسبه إلى أنه مدع فيها يسأله , فاستوحش و أخد والدتي و رجع إلى تستر و أقام نحوا من سنة , و وقع له عند الناس قبول عظيم حتى حسده جميع من في وقته , و لم يزل عمرو بن عثمان يكتب الكتب في بابه إلى خوزستان , و

لقد كان ولا يزال«سقراط» النموذج الحقيقي للصمود أمام الموت ، وقد عبر عن ذلك بروح قويه ، تجاوزت الفكر والمفهوم إلى الممارسة ،ومن مجرد القول والحوار إلى التجربة فاستطاع إن يحقق الخلود والبقاء والحضور الدائم في الخطابات الفكرية المختلفة والقراءات الفلسفية ، فكان «سقراط» لغزا يحتاج دائما إلى تفسير ، وكل تفسير يحتاج بدوره إلى الوقوف والفهم وبالتالي الاستمرار والحضور .

وعندما نحاول أن نفهم مواقف «سقراط» أو نقرأ له نجد أنفسنا واقعيين بين الغموض تارة وبين الإعجاب والاندهاش تارة أخرى ، لكن ما نلبث أن ندرك أننا أمام موقف فلسفي قبل كل شيء ، وهو يحتمل النقد والتحليل والمقارنة والتأمل خاصة .

ولأن هذا الحكيم اختلف عن الاثنين ، فحاول أن يعلم الناس أسلوب العيش وكيفية الموت بغرض أن يخرجهم من أفكار قد تؤثر على حياتهم العملية وتجعلهم غير إيجابيين ،و بهدف التصدي لجميع الأفكار أو بالأحرى المغالطات التي كان يثيرها السفسطائيون ،ويغير من أخلاق الناس ويدعوهم إلى الفضيلة والواجب ، أي التدرب على الموت ويجعلهم يأملون في حياة أفضل للوصول إلى الحياة الحقيقية والخالدة ،وأن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى ذلك إلا من خلال ممارسة الموت وهو ما أعطاه القدرة على مواجهته وتحمله.

والموقف ذاته في المواجهة والتحمل والإيمان القوي يتجسد في أبشع أنواع الإعدام أو بالأحرى التعذيب الذي مورس على شهيد التصوف الإسلامي " الحسين ابن منصور الحلاج " فكان موقف هذا الأخير ينافس موقف «سقراط» في الانتقال من التجربة إلى الممارسة ومن الرغبة إلى التطبيق ، فكان كل منهما رمزا من رموز البحث عن الحياة الحقة والخالصة ومن تجربة الفيلسوف في الموت إلى تجربة العشق الإلهي .

وبالرغم من اختلاف كل منهما في طريقة إيصال رسالته وتعارض المنطق والمذهب والاعتقاد ، إلا أن موتهما كان يتجه نحو نقطة واحدة وهي البحث عن الحياة الحقيقية ، ومواجهة الحياة الدنيوية والوقوف أمامها

يتكلم فيه بالعظائم حتى جرد و رمى بثياب الصوفية , و لبس قباء و أخد في صحبة أبناء الدنيا , ثم خرج و غاب عنا خمس سنين بلغ إلى خراسان , و ما وراء النهر , و دخل إلى سجستان , و كرمان , ثم رجع إلى فارس . فأخد يتكلم على الناس , و يتخد المجلس , و يدعو الخلق إلى الله . و كان يعرف بفارس بأبي عبد الله الزاهد , وصنف لهم تصانيف , ثم صعد من فارس إلى الأهواز و أنفد من حملني إلى عنده , وتكلم مع الناس ,وقبله الخاص و العام , و كان يتكلم على أسرار الناس و ما في قلوبهم , و يخبر عنها فسمي بدلك حلاج الأسرار , فصار الحلاج لقبه , ثم خرج إلى البصرة و أقام مدة يسيرة و خلفني بالأهواز عند أصحابه , و خرج ثانيا إلى مكة , و لبس المرقعة و الفوطة و خرج معه في تلك السفرة خلق كثير , و حسده أبو يعقوب النهر جوري فتكلم فيه بما , فرجع إلى البصرة و أقام ببغداد سنة واحدة , ثم قال لبعض أصحابه : احفظ ولدي حمد إلى أن أعود أنا , فإني قد وقع لي أن أدخل إلى بلاد الشرك و أدعو الخلق إلى الله عزوجل و خرج . فسمعت بخبره أنه قصد إلى الهند ثم قصد خراسان ثانيا و دخل ما وراء النهر , و تركستان , و إلى ماصين , و دعا الخلق إلى الله تعالى , و صنف لهم كتبا لم تقع إلى , إلا أنه لم رجع كانوا يكاتبونه من الهند , بالمغيث , و من بلاد ماصين و تركستان , بالمقيت , و من خراسان , بالمميز , و من فارس , بأب عبد الله الزاهد , و من خوزستان , بالشيخ حلاج الأسرار, و كان ببغداد قوم يسمونه المصطلم , و بالبصرة قوم يسمونه المحير , ثم كثرت الأقاويل عليه بعد رجوعه من هده السفرة , فقام وحج ثالثا و جاور سنتين ثم رجع و تغير عما كان عليه في الأول , و اقتنى العقار ببغداد , و بنى دارا ودعا الناس إلى معنى لم اقف إلا على شطر منه حتى خرج عليه محمد بن داود , و جماعة من أهل العلم , و قبحوا صورته , و وقع بين علي بن عيسى و بينه لأجل نصر القشوري , و وقع بينه و بين الشبلي , و غيره من مشايخ الصوفية , فكان يقول قوم : إنه ساحر. و قوم يقولون : مجنون , و قوم يقولون : له الكرامات و إجابة السؤال , و اختلفت الألسن في أمره حتى أخده السلطان و حبسه .

للوصول إلى الحقيقة عند «سقراط» ، وامتزاج العاشق بالمعشوق عند الحلاج.

إن شخصية هذا المتصوف هي من أبرز الشخصيات العالمية التي لا تزال حاضرة في الذاكرة الإنسانية لا سيما ذاكرة المثقف ، وشغلت حيزا كبيرا من الدراسات المختلفة ، وذلك انطلاقا من قوة هذا الموقف النابع من إدارة البحث عن الخلاص والرغبة في الحياة الحقيقية والاتصال بالمعشوق والفناء فيه .

إن هذا الموقف الثائر الاستشهادي في سبيل الحق والحب الإلهي و الذي لا يقارن ولا يقاس بأي شيء في تصور «الحلاج» وفي تصور جميع المتصوفة ، فمن استطاع أن يبلغ هذه المرتبة السامية ترفع عن كل متدن ووصل إلى مرتبة الخلاص أي إلى المقام الأعلى ، وأصبحت الأشياء الأخرى في تصوره لا معنى ولا قيمة لها وهمه الوحيد هو إنهاك ذلك الجسد – مصدر الإثم والرذيلة - في الرياضة والمجاهدة والصلاة لبلوغ مرتبة العشق الإلهي ، وهو ما كان يصبوا إليه «الحلاج» ، فلم يهتم بمحاكمته ولا حتى بنوع المحاكمة ، ليكون بذلك رمزا للصبر والإيمان والصمود والزهد في الحياة لا يزال حاضرا إلى يومنا هذا .

ويصعب علينا فهم حقيقة موقف «الحلاج» بين معارض ومناصر أو بين من اعتبر «الحلاج» شهيدا ، ومن أعتبره كافرا يستحق الإعدام ، لكن في كل الأحوال سنحاول فهم الموقف في ذاته .

إذا هل يمكن أن يكون موقف الفيلسوف «سقراط» ورأيه قي الموت يتوافق مع موقف الصوفي «الحلاج»؟ وهل هذا الأخير ينطلق في قبوله للإعدام من نفس القناعات التي انطلق منها «سقراط» ؟، هل هي فلسفة في التصوف أم صوفية متفلسفة؟ ما حقيقة الموت عند «الحلاج» هل في الإعدام والصلب، أم في الوصول إلى مرتبة العشق الإلهي ؟ أو بالأحرى كيف فهم «الحلاج» الموت ؟ .

لقد اختلفت التعاريف التي قد مها المتصوفة حول الموت من بينهم ابن عربي الذي نلتمس له تعريفين للموت التعريف الأول : " الموت هو السكون " ([1]) ، إلا أن هذا التعريف يبدوا أكثر عمومية لأنه ينطبق على الأشياء الجامدة الأخرى غير القابلة للموت ، ويرجح أن ذلك أطلق فقط على سبيل التشبيه ، أما التعريف الثاني " الموت هو زوال الحياة " ([2]) ، ويمكن أن نعتبر أن زوال الحياة التعريف الأكثر قبولا لأنه يصدق على الكائن الحي، وزوال الحياة فيه يعني الموت ، لكن هذين التعريفين السابقين عامين على كل أنواع الموت التي تحدث عنها ابن عربي فقد قدم أنواعا متعددة للموت وذلك انطلاقا من أن الحياة تحمل أوجها مختلفة وهي ضد للموت، فإنه وطبقا لذلك يجعل للموت أ وجها متعددة ، فهناك موت الصورة الجسدية وموت

---

[1] - إبراهيم تركي، فلسفة الموت عند الصوفية ،مذكور سابقا، ص 151 .

[2] - المرجع السابق، ص 151.

القلب والموت عن الحق والموت الطبيعي ، وستكون لنا وقفة موجزة عند كل هذا الأنواع .

أول هذه الأنواع هو ما اصطلح عليه ابن عربي الموت الأصلي الذي لا تسبقه حياة ونجد إشارة إلى هذا النوع من الموت في القرآن الكريم في قوله تعالى : [وكيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا] ([1]) وهو " ينطبق على الإنسان قبل حدوثه أو وجوده وذلك عند سريان الحياة فيه باتصال الروح بالبدن ولذلك يكون الإنسان عند ابن عربي ميتا قبل نفخ الروح فيه " ([2]) .

فالإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح يكون ميتا موتا سابقا على كل حياة وذلك في مقابل الموت العارض الذي يكون مسبوقا بحياة وفيه يقول تعالى [فأحياكم ثم يميتكم] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعاريف السابقة التي قدمناها حول الموت لا تنطبق على الموت الأصلي بقدر انطباقها على الأنواع الأخرى ، منها موت الصورة الجسدية ، وهو الموت العارض والطبيعي ، الذي يصيب كل الكائنات الحية ويحدث ذلك بانفصال الروح عن الجسد " وهو لا يلحق الأرواح و إنما يلحق فقط الأبدان إذا فارقتها الأرواح والموت بالنسبة للأبدان لا يعني فناءها المطلق أو عدمها وإنما يعني تغيير صورها بانحلال تركيبها وصيرورتها إلى عنصرها الأصلي" ([3]) .

وعلى خلاف موت الصورة الجسدية أي الطبيعي يقدم ابن عربي نوعا آخر وهو الموت عن الخلق، أو هو موت القلب([4]) ويعتبر هذا الأخير مصدرا للعقل ، أو ما يسمى بالنفس الناطقة "وحياته هي العلم فإذا مات القلب يكون ذلك جهلا لأن العلم هو حياة القلب ، لذلك فإن زوال الحياة عن القلب الذي هو الموت بالنسبة له لا يعني إلا زوال العلم منه وهذا هو الجهل " ([5]).

فالإنسان قد يكون حيا في صورته الجسدية الظاهرة لكن معنويا هو ميت القلب وخاليا من المعرفة بالله والغفلة عن الله ، لذلك وجب تطهيره من الشهوات والشبهات .

ولقد تم اختيارنا لأبن عربي وعرض تعريفاته لأنه استطاع أن يجمع أنواع الموت في كتاباته ،خاصة كتاب " الفتوحات المكية "

أما «الحلاج» فلم يقدم تعريفا صريحا للموت في بعض المصادر التي حصلنا عليها أو كتابا حول الموت أفرده لذلك ، وإنما تحدث عنه في بعض أشعاره وكتاباته ، نجدها متفرقة هنا وهناك .

---

[1] - سورة البقرة الآية 28 .

[2] -- المرجع السابق، ص 162 .

[3] - المرجع السابق ،ص 167 .

[4] - وهو تعبير عما يقال بأن الموت عند الصوفية هو الحجاب على أنوار المكاشفات والتجلي ،و القلب هو موضع المكاشفات الإلهية وتلك التجليات الربانية ، فإذا مات القلب بالجهل ، أي لم يعد صالحا لخلوه من العلم بالله الذي هو حياته الحقيقية ، فإن ذلك لا يعني سوى أنه محجوب عن هذه الأنوار الإلهية .

[5] - المرج لسابق، ص 177 .

وقد نجد هذه الفكرة تعبر عن ذاتها من خلال مواقف «الحلاج»، وبالأخص يوم صلب وقطعت يداه ورجلاه وحز رأسه ، فلم يتأوه ولم يطلب العفو ، وإنما كان صامدا مرددا لكلمات التوحيد والإيمان حتى آخر نفس .

وكما سبق وذكرنا أن مفهوم الموت عند الصوفية المسلمين خاصة كان يحمل مضامين تعبر عن الانتماء الروحي والإيمان والزهد في الحياة ، بحثا عن حياة أفضل ، وتجسد ذلك في " قمع هوى النفس فإن حياتها به ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا به " ([1]) ، فكان المتصوف يؤمن بأن الموت الطبيعي هو موت حاصل و لا يقارن بنشوة ذلك الموت الذي يعيشه الإنسان عندما يجاهد نفسه بالرياضات ليصل إلى مقام الأولياء والشهداء "فمن مات عن هواه فقد حيى بهدايته عن الضلالة وبمعرفته عن الجهالة" ([2]).

فالحلاج لم يختلف عن هذا المفهوم الصوفي وإنما انطلق من نفس المبادئ والقيم الصوفية وأضاف إلى ذلك التطبيق والممارسة، أو بالأحرى أخضع القول للتجربة ، فكان موته في حياته عندما كان يعذب نفسه ويخضعها للرياضة والمجاهدة وهو راض بذلك فكان يقول: إني لراض بما يرضيك من تلفي يا قاتلي ولما تختار أختـــــار ([3]).

وكان موته العضوي يوم صلب دليل على صوفيته وعلى إيمانه القوي ، ورغبته في الفناء في معشوقه فكأنه كان يبحث عن حياة أخرى يدفع ثمنها في حياته الدنيوية .

وسوف نستشهد في هذا المقام ببعض أقوال «الحلاج» وأشعاره و مواقفه التي تعبر عن قيمة الحياة الدنيوية عنده وعن الموت ، وكيف كان يمارسه في حياته قبل أن يمارس عليه .

فقد كان يروى عنه أنه كان شديد التعذيب لجسده إلى حد إنهاكه بالعبادة والرياضة ، ويقال أنه " دخل إلى مكة وكان أول دخلته ، فجلس في صحن المسجد سنة لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو للطواف ، ولا يبالي بالشمس ولا بالمطر ، وكان يحمل إليه كل عشية كوز ماء للشرب ، وقرص من أقراص مكة ، فيأخذ القرص ويعض أربع عضات من جوانبه ، ويشرب شربتين من الماء ، شربة قبل الطعام وشربة بعده ، ثم يضع باقي القرص على رأس الكوز فيحمل من عنده " ([4]) ، وكان دائب الصلاة والصيام فكان يصلي عند القبور ويعذب جسده ويحوله من جسد متحرك إلى جثة هامدة .

---

[1] - رفيق العجم ، موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي ، مكتبة لبنان ، ناشرون ، ط 1 سنة 1999 ص 952 .

[2] - المرجع السابق ص 952 .

[3] - الحلاج،ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين ، وضع حواشيه وعلق عليه محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية لبنان . الطبعة الثانية 2002 . ص 178 .

[4] - أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ومدينة السلام ، دراسة وتحقيق عبد القادر عطا ، الجزء الثاني ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، سنة 1997، ص 117 .

وربما تكون الأبيات الشعرية التي أنشدها «الحلاج» قبل أن تقطع رجلاه حاملة لمعنى الموت عنده ،أو بالأحرى كيف كان يتصور ذلك الحكم بالإعدام على أنه حياة كان يسعى إليها فأنشد يقول :

اقتلوني يا ثقاتـــــــــــي إن في قتلي حياتـــــــــــي

ومماتي في حياتـــــــــي وحياتي في مماتـــــــــي [1]

فالحلاج يعلن هنا بأن قتله هو الحياة الحقيقية التي كان يصبوا إليها ، أما الحياة الدنيوية التي يضنون أنها حياة هي في الحقيقة موت ، ويصبح بذلك الإعدام والصلب حياة بالنسبة للحلاج وشهادة .

كما أنه يشير في الكثير من أشعاره وعباراته إلى فكرة الحياة الجديدة بعد الموت ، ويدعو الناس لأن يسعدوا لموته لأنه سيلاقي نعيما من الله وسيتخلص من عناء الشوق والوجد لأنه كان كلما تذكر الله كان ذكره يقتله فهو يقول :

ما إن ذكرتك إلا وهم يقتلني ذكري وسري وقلبي عند ذكراكا

أما فكرة الحياة بعد الموت أو الحياة الحقيقية والخلاص فهو يعبر عنها بقوله :

قل لمن يبكي علينا حزنـــــا افرحوا لي قد بلغنا الو طنـــــــا

إن موتي هو حياتي إننـــــي أنظر الله جهارا علنـــــــــا [2]

ويقول : فاشكر الله الذي خلصنـــــا وبنى لي في المعالي مسكنـــــــا [3]

لذلك كان يشعر «الحلاج» بأنه في سجن في هذه الحياة وأن الموت هو الذي يخلصه من هذا السجن ، فكان يرجوا الله بأن يخلصه من ذلك بالموت، و أن يعطيه القوة علي مقاومة هذا العشق فقد فاض به الشوق إلى الله.

وبذلك يحمل الموت مفهوما جديدا عند «الحلاج» فبالإضافة إلى أنه شهادة هو أيضا خلاص وراحة من سجن الحياة يقول :

فها أنا في حبس الحيـــــاة ممنع عن الإنس فاقبضني إليك من الحبس

وكما أن السجين يكون مقيدا فلا يستطيع ممارسة حرياته ولا يستطيع الاتصال بمعشوقة ويكون في عذاب دائم ويتمنى الموت عندما ما ييأس من وضعه ، كذلك «الحلاج» لم يستطع أن يتحمل هذه الحياة وشدة

---

[1] - الحلاج ، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين ، مذكور سابقا ، ص 125 .

[2] - ، المرجع السابق، ص 182 .

[3] - المرجع السابق، ص 188 .

الشوق ، فكان يتمنى أن يتخلص من هذا السجن ، وذلك لن يكون إلا بالموت حتى يستريح .

وهو ما يفسر قوله عندما كان ينادي الناس في جامع المنصور ويقول : " يا أيها الناس اسمعوا منى واحدة ، فاجتمع عليه خلق كثير ، فمنهم محب ومنهم منكر فقال : اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني ...اقتلوني تؤجروا وأستريح "([1]).

ولذلك "حلا للصوفية أن يشبهوا النفس بالطائر السجين الذي هبط إلى الأرض من عالم السماء ، ولكنه لا يفتأ يحن إلى وطنه ويحاول الإفلات من قفصه " ([2]) وهذا الإفلات من القفص لا يكون إلا بالموت، وكان عزاء «الحلاج» وغيره من الصوفية الرياضة الروحية والمجاهدة متوجها إلى الله تعالى أو ما يسمى بالسفر الذي يحقق لقاءا جزئيا بالله ، وتخفيفا لعذاب الشوق ، إلى أن يلتقي به كليا عندما يتحرر من سجن الحياة ، " فإذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير حرا من تعب العبودية ، فيرتسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة وذلك مقام الأنبياء والصديقين" ([3]) ويقول أيضا " من أراد الحرية فليصل العبودية " ([4])

يمكن انطلاقا مما سبق وانطلاقا من بعض أقوال «الحلاج» ومواقفه، وأراء بعض المتصوفة يمكن أن نقدم تعريفا للموت عند «الحلاج»، إذ يوجد نوعين من الموت معروفين عند الصوفية وفصل فيهما ابن عربي- كما سبق وأشرنا - ومارسهما في نفس الوقت «الحلاج» .

وهذه الممارسة نستشفها من حياة «الحلاج» الروحية والثورية لأن هذا الثائر الروحي أو شهيد التصوف الإسلامي ، كما يلقبه - الكثير من الباحثين العرب والمستشرقين - اختار لنفسه طريقا وأسلوبا في الحياة الروحية والعملية كان شاهدا عليه وبرهان على إيمانه القوي وحتى وإن لم نجد هذين النوعين من الموت في أشعاره ومناجاته فإننا سنجد ذلك مجسدا بشكل واضح في حياته خاصة في لحظات فنائه وحبه لله تعالى فمات عن الخلق ، وموته العضوي كان يوم أعدم .

ويجب أن نشير هنا إلى أن سائر الصوفية اتفقوا على أن الإنسان العارف يصل في التجربة الروحية إلى مرتبة يكون فيها قريبا من الله وينقطع عن الأمور الدنيوية ، وتنكشف له الحقائق الإلهية وتسمى هذه المرتبة بمرتبة الفناء الصوفي وهو ما يضاهي الموت الطبيعي ، لذلك يرى الغزالي بأن العارف الكامل في حال فنائه قد مات مرة في حق الدنيا وفي حق كل ما يفارقه بالموت " ([5]).

---

[1] - محمد جلال شرف،دراسات في التصوف الإسلامي،شخصيات ومذاهب،دار النهضة العربية،بيروت، ص 314 .

[2] - إبراهيم تركي ، فلسفة الموت عند الصوفية،مذكور سابقا،ص 167 .

[3] - أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك . الرسالة القشرية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع الترجمة، ط 2 سنة 2003 ص 121 .

[4] - المرجع السابق، ص 121 .

[5] - إبراهيم تركي ، فلسفة الموت عند الصوفية ، مذكور سابقا ، ص 137 .

إذن يصبح لدينا نوعين من الموت عند الصوفية هما الموت الجسدي العضوي ، أو كما يسمى موت الصورة الجسدية ، والفناء الصوفي وهو موت عن الخلق ، أو الموت الإرادي كما يسميه ابن عربي ، ويبدوا أن هذا المفهوم الأخير للموت ليس حصرا على المتصوفة فقط فقد "استخدمه بعض الحكماء والفلاسفة والصوفية ويقال أن أفلاطون هو الذي وضع هذا المصطلح عندما فرق بين الموت الطبيعي و الإرادي الذي هو مفارقة الروح للجسد "([1]).

أما الفناء الصوفي أو الموت عن الخلق فهو موت إرادي يحدث عندما يكثر العبد من المجاهدات والرياضات فيستغرق في عظمة الله ومشاهدته ويفقد الإحساس بكل ما سول الله لاسيما ذاته أو كما يقول ابن عربي :" إن العارف المكمل يرى نفسه ميتا بين يدي ربه عز وجل إذ كان الحق الذي هو سمعه وبصره ويده ولسانه ليصلي عليه " ([2]) فحركة العبد وجوارحه تكون ساكنة نحو المخلوقات ، وحركته كلها تكون بالله ولله ، فيدخل العبد في رحاب الحضرة الإلهية ويتذوق العشق الإلهي ، ويغيب عن الوعي بالعالم الخارجي وحتى بجسده فيتحول هذا الأخير إلى جثة ويغوص المريد في رحاب الله فيشعر به ويشاهده ،" فالفناء عند الصوفية هو حالة وجدانية يعانيها العارفون الواصلون إلى ذروتهم ، إنما هو كالضلال بالنسبة إلى الوجود الإلهي ففي حالة الفناء يطلع الإنسان بعين بصيرة على عالم الغيب أو عالم الملكوت ويغفل أو يغيب عن عالم الشهادة أو عالم الملك" ([3]) .

وبالفعل حدث ذلك مع «الحلاج» فكان شهيدا للعشق الإلهي كما يلقبه " ماسينيون "([4]) فكان يفنى في حبه للحق ويجاهد نفسه في العبادة وينقطع عن الدنيا ويتصل فقط بالله فتنكشف له الحقائق الإلهية انكشافا بحيث يشاهدها بعين بصيرته ، ويتوقف إحساسه بالعالم فيدخل في رحاب الحق ، فيموت بذلك عن الخلق فهو " في حال فنائه لا يكون محتاجا إلى ذكر الموت لترويض قلبه على الزهد في الدنيا لأنه قد مات عندما انقطعت صلته بالدنيا في هذه الحالة من الفناء " ([5]).

فالحلاج لم يكن يخاف لا من الموت ولا من الصلب بل كان يستعجله لتخلص روحه من ذلك السجن وليحقق الالتقاء ، ولو أنه لم يتكلم عن الموت عن الخلق بصريح العبارة فإنه عبر عن ذلك من خلال مواقفه فكان نموذجا صادقا للفناء الصوفي .

إن عرضنا لهذا النوع من الموت هو لغرض فهم رؤية «الحلاج» لحقيقة الموت ومن ثمة لحادثة موته أو الإعدام ، هذا الأخير الذي يمثل النوع الثاني

---

[1] - المرجع السابق ص 188 .

[2] - المرجع السابق ، ص 182 .

[3] - المرجع السابق، ص 135 .

[4] -louis massignonK ولد عام 1883في باريز اهتم بدراسة التراث العربي الاسلامي كانت له دراسات كثيرة حول الحلاج من اهم مؤلفاته ،عذاب الحلاج والطريقة الحلاجية،الحلاج الشيخ المصلوب والشيطان عند اليزيدية وغيرها، توفي 1962.

[5] - المرجع السابق ص 136 .

من الموت ، أي موت الصورة الجسدية ، وهو موت حاصل لكل الخلق فكيف إذا نظر «الحلاج» إلى هذا النوع من الموت ؟

إن موت الصورة الجسدية ليس خاصا بالصوفية فقط ، وإنما خاص بكل كائن حي بما في ذلك الإنسان ، أو بالمفهوم البيولوجي توقف الوظائف الحيوية و فقدان الحركة و الإحساس والتنفس ويكون لأجل ، وهو ما حدث للحلاج عندما اعدم - كما أعدم «سقراط» -، لكن هذا الثائر الروحي كان على خلاف الناس جميعا ، وخاصة من حكموا عليه ، لأنه كان يستعجل هذا الموت ولا يخاف منه وكان يعتبره - كما أعتبره سقراط - خيرا سيقربه من معشوقة ويخلصه من سجن الحياة ، لان عذاب الشوق أشد ولا يقاس أو حتى يقارب بعذاب الصلب وبتر الأطراف .

فكان «الحلاج» بحق أكبر معبر عن حقيقة الموت قولا وممارسة .

رسالة «الحلاج» في سبيل الموت :

لقد اختلف «الحلاج» عن المتصوفة كما اختلف «سقراط» عن الفلاسفة، ولا شك أن هذا الاختلاف يتحدد من خلال موقف كل منهما في انتهاجهما طريقا حكيما وروحيا خالصا ، وفي مواقفهما في حياتهما ، واختلافهما عن معتقدات ومبادئ عصرهما ، فوقف «سقراط» ضد السفسطائيين وضد المعتقدات التي قد تؤثر سلبا على شباب أثينا ، واختلف «الحلاج» عن المتصوفة فكشف الأسرار و تكلم في الناس علنا " سعيا إلى المعرفة وجهادا ضد النفس وحربا على الظلم والاستبداد ودعوة إلى العدل وإحقاق الحق " ([1]).

هذا وقد كان موت كل منهما في سبيل الحق والعدل والمعرفة والحقيقة والأمل في حياة أفضل عند «سقراط» ،و التقاء العاشق

[1] - الحلاج ،ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين،مذكور سابقا، ص 09

بالمعشوق عند «الحلاج» ، ولم يتراجع أي منها عن إيمانه القوي بيوم المـوت بل الأكثر من ذلك استعجالهما له .

وكما سبق وذكرنا أن «سقراط» كان يعتقد بأنه مكلف برسالة يحب عليه تأديتها فكان يعض الناس وينصحهم ويـدعوهم إلـى الفضـيلة والمعرفـة والبحث عن الحقيقة لتحقيق الخلاص ، ويعلمهم مواجهة المـوت وقبـوله لا الهرب منه ، كذلك كان «الحلاج» ثائرا ضد الظلـم والطغيـان داعيـا النـاس إلى حب اللـه لأن ذلـك هـو طريـق الخلاص ، واسـتعجل المـوت واعتـبره راحة من سجن الحياة وعذاب الشوق .

لو لم يتراجع «الحلاج» عـن دعـوة الخلـق إلـى اللـه لأنـه كـان يـؤمن إيمـان «سقراط» أن من واجبه دعـوة الأمـة الإسـلامية وتوحيـدها مـن خلال المحبـة التى هي باب الخلاص .

ولا شك أن بداية دعوة «الحلاج» كانت منذ خروجه عن تقاليد الصـوفية ، فخرج عن قوانين الصحبة دون اسـتئذان ، فأثـار حفيظـة الصـوفية فـأنكروا عليـه سـلوكه وتصـرفه واتهمـوه بـالكفر والحلـول والشـعوذة وحكمـوا عليـه بالإعدام .

فهذا" الثائر ضد التقليديين في الاعتقاد " ([1]) لم يتراجع عن دعوته وأبى إلا أن يواصل مسيرته ، واعتبر الموت الذي يتوعـدونه بـه جـزء مـن رسـالته ، فمن خلاله سيحقق الاتصال بحبوبه ففي " سـبيل الحقيقـة الخالـدة ضـحى الحلاج بأعز ما يملك ، لأنه علم أن الحب دينه ودينه لا يرجـع عنـه ولـو لاقـى في سبيله حتفه ومصيره الأخير " ([2])

وأهم ما يميز دعوة «الحلاج» هو تأكيده على قيمة المحبة القائمـة علـى التضحية في سبيل تحقيق الاتصال بالمعشوق- اللـه تعـالى- ، فكـان يـدعوا الخلق إلى الله " واستطاع أن يـدخل فـي قلـوب مريـديه مفهومـا اجتماعيـا يعني بإصلاح المجتمع عنايته بإصلاح الفرد " ([3]) .

ولم تكن رؤية «الحلاج» ضيقة بل اتسـعت إلـى كـل أفـراد المجتمـع فوقف ضد المألوف من التقاليد الدينية التي كان يسير عليها فقهاء عصـره وحتى الصوفية ، وكان دائما يـدعو النـاس إلـى الزهـد والمجاهـدة والرياضـة وإلى الفناء في حب الله .

وهو ما جعل المريدين يوفدون إليه ويقرون بدعوته ويعـترفون بمـذهبه ويناصرونه ، فكان يكشف الأسرار " فنبذ خرقة الصوفية ، كمـا كـان يتكلـم بحرية مع أبناء الدنيا وبخاصة الكتاب ورجال الأعمال ، وهم جمهور مثقف ، وكان يؤكد دائما على ضرورة البحـث عـن الحقيقـة الإلهيـة وتجـاوز الشـعائر والمعتقدات التي قد تظلل الناس وتبعدهم عـن الحقيقـة السـامية وهـي فـي تصور الحلاج كامنة في داخل كل إنسان ولن يصل إليها إلا إذا عرف مقام

---

[1] - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ،مذكور سابقا،ص 85.

[2] - مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 516 .

[3] - الحلاج ، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين ، مذكور سابقا ، ص 09

الله وأحبه وفنا فيه فكان " يمارس الحياة الدينية بدون أن يعير الأعراف القائمة كبير التفات داعيا الناس إلى ممارسة الحياة الداخلية " ([1]) .

ولم يختر «الحلاج» لنفسه مكانا يدعوا الناس فيه ، ويعضهم بل كان كثير الرحلات وأينما حل يلقى قبولا ويكون له مريدون، واستمر يدعو ويعض في الجاليات العربية في شرق إيران وهو يبث دعوته في المدن ويقيم في الحدود ويرابط مع المرابطين في الثغور " ([2]) ، متجاهلا في ذلك كل العقبات وكل من رفض دعوته واعتبره ضد وحدة الأمة الإسلامية .

وبعد أن كانت رحلاته لا تتجاوز حدود الأمة الإسلامية التي كانت آخرها تلك التي عاد فيها إلى مكة حاجا للمرة الثانية ويقال أنه عاد ومعه أربعمائة من تلامذته المريدين وبعد ذلك " استأنف أسفاره فقام برحلة كبيرة ثانية أبعد من الأولى في منطقة خارج شفاعة محمد ، في بلاد كفار الهند ومانوية وبوذية التركستان ، فوصلها بطريق البحر وصعد في نهر السند وذهب من ملتان[3] إلى كشمير، ومضى في طريقه صاعدا ناحية الشمال الشرقي حتى طرفان (ماسين) مع القوافل الأهوازية "_____ص 65 .

فأصبح المريدون ومن مناطق متعددة يراسلونه ليحقق بذلك نفوذا في أوساط الأمة الإسلامية ، فاستطاع " أن يكسب محبة الجميع فكان يدعى بالشفيع ، وقد أسلم بفضل إشعاعه الكثيرون" ([4]) ،و أيقض كل من كان يرغب في الإصلاح الأخلاقي والسياسي لرفع الفساد وإحياء العزائم التي كانت تطالب بقيام دولة إسلامية عادلة تراعي مصالح الفرد والجماعة ، "ويبدو أن دعوة «الحلاج» كانت تتجاوز أن يكون شيخا صاحب طريقة وأن يكون له أتباع فقد كان يجمع حوله جماعات الساخطين والمضطهدين والفقراء والمحزونين ويتصل بالجماعات السياسية الثائرة التي تهدف إلى قلب الحكم وخلع الخليفة " ([5]) .

ولقد قامت في ذلك الحين بين العلماء رغبة عامة في إصلاح الأداة الإدارية وطالبوا بإقامة حكومة إسلامية حقا ووزارة تحكم بالعدل خصوصا في مسائل الخراج والضرائب ، وخلافة شاعرة بمسؤوليات وظيفتها أمام الله مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم "([6]) وهو دفع المسلمين إلى محاولة رفع الظلم والاستبداد .

وقد أشار " ما سينيون " في دراساته حول حياة «الحلاج»والمغزى منها حيث يقول : " كان «الحلاج» يحرك الجماهير وينادي بالإصلاح ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التي تقيم الشريعة على نغمات المحبة والعبادة

[1] - هنري كوبان،تاريخ الفلسفة الإسلامية ، مذكور سابقا ، ص 295 .

[2] - عبد الرحمن بدري ، شخصيات قلقة في الإسلام ، مذكور سابقا ص 67 .

[3] -- المرجع السابق ، ص ص 180181.

[4] - هنري كوربان ،ترجمة نصير مروى،حسن قبيس، مراجعة الإمام موسى الصدر،الأمير عارف،بيروت،ط 1977،1، ص 226 .

[5] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، أعلام التصوف والمفكرين عليه والطرق الصوفية ، دار الرشيد ، ط 1 ، سنة 1992 .ص 126 .

[6] عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الإسلام ،مذكور سابقا، ص 71

الخالصة "[1] ، فحاول المسلمين رفع الظلم واعتقدوا أن «الحلاج» يمكن أن يقوم بذلك ، إلا أن هذا الأمل ما فتئ أن يتحقق حتى رفعت دعوة ضد «الحلاج» واعتبروه ثائرا ومشعوذا ومناصرا للقرامطة[2] وغيرها من التهم التي وجهت إليه بهدف الوقوف أمام رسالة التي كانت تهدد مصالح الساسة خاصة " ، ويقول المستشرق الكبير " نيكلسون" أن رجال الدولة ضاقوا بنفوذ الحلاج وصيحاته ونداءاته و استغاثاته وخافوا أن توقظ همه الناس "[3] هذا من ناحية ، لكن من ناحية أخرى استطاع «الحلاج» أن يكسب مناصرين له " فقد ظل له في نفوس كثير من المسلمين مكانة عالية يضعونه فيها ، منزلة الأولياء والشهداء "[4].

ولم يتراجع «الحلاج» أمام هذه التهم التي وجهت إليه[5] ، بل استمر في ذلك معلنا عشقه وشوقه لله ومفكرا في الإنسانية كلها انطلاقا من الأمة الإسلامية فكان " يبشر بالإسلام ويعلم الناس طريقته وكأن يفكر في هداية الإنسانية كلها عبر الإسلام ، وأطلقوا عليه اسم المغيث والمصطلم والمقيت والمجير وكانت له كرامات[6] " [7] .

إن «الحلاج» كان يضع مفهوم الحب والعشق الإلهي السبيل الأول لبلوغ مرتبة الخلاص والتقرب من الله تعالى ومن ثمة تحقيق العدل وإحقاق الحق ووحدة الأمة الإسلامية فكان " يؤكد أن غاية الكائنات جميعا

---

[1] - المرجع السابق ، ص 180-181 .

[2] - القرامطة حركة باطنية هدامة، اعتمدت التنظيم السري العسكري، ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والشيوعية والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذي نشرها في سواد الكوفة سنة 278هـ. دامت هذه الحركة قرابة قرن من الزمان، وقد بدأت من جنوبي فارس وانتقلت إلى سواد الكوفة وامتدت إلى الأحساء والبحرين والبصرة واليمامة. وسيطرت على رقعة واسعة من جنوبي الجزيرة العربية واليمن والصحراء الوسطى وعمان وخراسان وقد دخلوا مكة واستباحوها واحتلوا دمشق ووصلوا إلى حمص والسلمية، وقد مضت جيوشهم إلى مصر وعسكرت في عين شمس قرب القاهرة ثم انحسر سلطانهم وزالت دولتهم وسقط آخر معاقلهم في الأحساء والبحرين. هذا ومما يلاحظ الآن أن هناك كتابات مشبوهة تحاول أن تقدم حركة القرامطة وغيرها من حركات الردة والتخريب في العالم الإسلامي على أنها حركات إصلاحية وأن قادتها رجال أحرار ينشدون العدالة والحرية.

[3] 2- عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، مذكورة سابقا ص 128 .

[4] - أحمد توفيق عباد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، مذكور سابق ص 75 .

[5] - أما الفقهاء فكانوا يأخذون على مذهبه في الإتحاد الصوفي ، أنه يخلط بين الإلهي والإنساني فينتهي إلى ضرب من الحلولية وأما السياسيون فكانوا يتهمونه بأنه يزرع الفتنة في العقول ويعاملونه كمشاغب ، وأما الصوفية فكانوا يلتزمون التحفظ حول شخصية «الحلاج» لأنهم كانوا يعتقدون أنه كان يرتكب حماقة كبرى بنشره أسرارا إلهية على عامة من الناس لا تتهيأ لا لتلقيها ولا لفهمها .

[6] -**وأما الكرامة فهي أمر خارق للعادة ولكنه لم يقترن بدعوة النبوة وهي التي تظهر على أيدي الأولياء أتباع** الأنبياء.

وقد اتفق أهل الحق على إثبات الكرامات وأنّ الله يخص بها بعض أوليائه وقد ذكر الإمام النسفي أن نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية جائز.

ومن الأدلة الدالة على الكرامات ما نص عليه القرءان في قول الله سبحانه في صفة مريم عليها السلام {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}(سورة آل عمران).

وكذلك ما نص القرءان عليه في قصة صاحب سليمان عن المجيء بعرش بلقيس ملكة سبأ حيث ورد ذلك في قوله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}(سورة النمل). وكذلك قصة أصحاب الكهف ونومهم أكثر من ثلاثة قرون.

[7] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، مذكور سابقا ، ص 126 .

وليس الصوفي وحده ، هي الاتحاد مع الله وهو اتحاد يتحقق بالحب ويحتاج الصوفي فيه إلى عمل إلهي تحويلي ينقل الموجود إلى وضعه الأسمى "[1]

لكن كيف كان يلقن الناس ذلك ؟ ما مضمون رسالة «الحلاج»؟ ما هو مذهبه ؟ هل ماقاله وما قام به كاف لأدانته والحكم عليه بالإعدام ؟ هل هي صوفية فاضت بالعشق الإلهي فأعلنت ؟ أم هي صوفية انحرفت فاستحقت الموت ؟

تتحدث الكثير من الدراسات والبحوث عن مسيرته الحياتية انطلاقا من مواقفه الروحية الثائرة والتي ختمها بلحظات إعدامه وموته، فكان مثالا للتضحية ونموذجا فريدا للصمود أمام الموت وليس هذا فقط لأنه قدم نظرية في النور المحمدي ، وكان السباق إلى فكرة وحدة الأديان و " لا شك أنه كان سابقا لعصره في الترقي الروحي بثلاث قرون من الزمان أو أزيد إذ نادي بوحدة الأديان قبل أن يحمل لوائها ابن عربي وتلميذه ابن القارض من بعده "[2]

وأيضا نظرية النور المحمدي التي تطورت فيما بعد " حاملة أسماء مختلفة كالتي نراها عند أبي بكر الكتاني " [3] ، أو التي أتم تقريرها " عبد الكريم الجيلي بحوالي خمسة قرون من الزمان في كتابة الإنسان الكامل " [4] .

وسوف نحاول أن نقدم فيما يلي موجزا عن النظرية الحلاجية في النور المحمدي وموقفه من الأديان وضرورة الإقرار بوحدتها .

لقد وضع «الحلاج» النبي عليه الصلاة والسلام في المرتبة الثانية بعد الله فتجاوز بذلك حبه لله إلى حب خير خلق الله، فاعتبر النبي عليه الصلاة والسلام مصدر كل شيء ومن نوره نشأن كل الموجودات فهذه النظرية " تنادى بأن لرسول الله عليه الصلاة والسلام صورتين مختلفتين : صورته نورا قديما كان قبل أن تكون الأكوان منه يستمد كل علم وعرفان ... ثم صورته نبيا مرسلا وكائنا محدثا تعين وجوده في زمان ومكان محدودين "[5]

فهو بهذا المفهوم يجعل النور المحمدي أصلا منه صدرت الأنوار الأخرى أي أنه النور الأول الذي تتجلى من خلاله النبوات ولولاه لما وجد أي شيء فهو يقول في كتاب الطواسين : " أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس في الأنوار نور أنو ولا أظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم "[6].وهو سابق على كل شيء وسيد البشرية أجمعين، ويشير «الحلاج» إلى علمه ومعرفته وأنه جاء هداية للبشرية "

---

[1] - هنري كوربان،تاريخ الفلسفة الإسلامية، مذكور سابقا، ص 296 .

[2] - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعته وأثره ، مذكور سابقا ص 88 .

[3] - محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ؛مذكور سابقا، ص 305 .

[4] - أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا، ص 89 .

[5] -

[6] - الحلاج ، الديوان ومعه أخبار الحلاج كتاب الطواسين ، مذكور سابقا ص 94 .

فالحق به وبه الحقيقة ، هو الأول في الوصلة هو الآخر في النبوة والباطن بالحقيقة والظاهر بالمعرفة " .

وتقودنا هذه النظرية التي يقدمها «الحلاج»إلى فكرة جديدة سبق وأشرنا إليها وهي وحدة الأديان ، ولأنه لم يتمذهب بأي مذهب من مذاهب الأئمة ، وإنما اختار الأصعب من بين كل هذه المذاهب فانه كان يدعوا الناس إلى ضرورة اعتبار أن الأديان كلها تحمل حقيقة واحدة وأننا لا يجب أن نعتبر الاختلاف الموجود بينهما على أنه خلاف ." لأن الاختلاف لا بد أن يكون اختلاف في الأسماء والألقاب والمقصود في الجميع لا يختلف " ([1]) .

ولعل هذا هو ما يفسر نظرته إلى الشعائر وضروبها ، حيث كان يعتبر ها مجرد "وسائط يجب تجاوزها إلى الحقيقة الإلهية التي تنطوي عليها ، ويريد بالناس العود إلى الأساس الأول مصدر الأفكار العليا ومصدر كل فهم أي الصيهور " ([2])،فهو لم ينبذ أيا من الأديان " فقد روى عن عبد الله بن طاهر الأزدي أنه قال : كنت أخاصم يهوديا في سوق بغداد وجري على لفظي أن قلت له يا كلب فمر بي الحسن بن منصور ونظر إليا شرازا وقال : لا تنبح كلبك ، وذهب سريعا ، فلما فرغت من المخاصمة قصدته فدخلت عليه فأعرض عني بوجهه فاعتذرت إليه فرضي ثم قال : يا بني الأديان كلها لله عز و جل شغل بكل دين طائفة لا اختيار فيهم بل اختيارا عليهم فمن لام أحدا ببطلان ما هو عليه فقد اختار ذلك لنفسه ، وهذا مذهب القدرية والقدرية مجوس الأمة ، واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقاب مختلفة وأسام متغايرة والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف " ([3])

هي إذا دعوة صريحة من «الحلاج» إلى تجاوز كل الاختلافات التي يمكن أن توجد بين الأديان لأنها كلها لله وتؤدي نفس الوظيفة ، وبالتالي هي دعوة إلى وحدة الإنسانية كلها، ويبدو أن هذه النظرية تحمل في مضمونها " فكرة خطيرة يصبح فيها الإسلام اجتماعا كاملا للإنسانية قد غفرت لهم خطاياهم"([4])

خاصة عندما يحاول «الحلاج» أن يبرر موقف رفض إبليس السجود لآدم ، وهو لا يقسو عليه وإنما يحاول أن يجد له أعذارا ويبرر موقفه ، ونجد هذا التبرير أو بالأحرى الرسالة التي يعرضها «الحلاج» مجسدة في كتاب الطواسين بعنوان "طاسين الأزل والالتباس في صحة الدعاوي بعكس المعاني " وهو في ذلك يبرر موقف إبليس ويقارن بين منزلته ومنزلة النبي عليه الصلاة والسلام فكل منها نذير ، وإبليس إمام الملائكة لم يقبل السجود لأدم لأنه " لم يشأ احتمال فكرة أن الله المعبود يمكن أن يتخذ

---

[1] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا ص 306 .

[2] - المرجع السابق ، ص 306 .

[3] - المرجع السابق ص 307 .

[4] - المرجع السابق ص 307 .

الصورة المادية المحقرة لأدم" ([1])، وهو بذلك يعلن حبه الشديد وعشقه لله فاختار اللعنة على أن يسجد لمن هو مصنوع من طين وقد صنع هو من نار، وهو أعلم بالله وأقدم في العبادة " قال له : استكبرت ، قال : لو كان لي معك لحظة لكان يليق بها التكبير والتحيز ، فكيف وقد قطعت معك الأدهار ؟ فمن أعز مني وأجل؟ وأنا الذي عرفتك في الأزل أنا خير منه)"([2]) لأن لي قدمة في الخدمة وليس في الكونين أعرف مني بك " ([3]).

واعتبر أن محمد عليه الصلاة والسلام هو أيضا توقف في منتصف الطريق " ففي المعراج توقف محمد عند أعقاب الحريق الإلهي دون أن يجرؤ على أن يضير نار موسى الكبرى "([4])،ولم يكشف عن الوحدة الإلهية وجعلها محجوبة بسور الشريعة ،لكن في تصور «الحلاج» أن ذلك " مؤقت إلى يوم أن تتجاوز صلوات كل الأولياء وتضحياتهم عن مكانه على نحو ملائكي متجاسرة على الدخول في نزاع مع الرحمن "

وبذلك يغدوا إبليس والنبي عليه الصلاة والسلام " من طبيعة صافية يقوم عند الرصيد الذي تعلق فيه الروح الإلهية فوق الكائنات المقدسة التي تدخلها في الواحد الأحد بحيلة من العشق غير متوقعة وخارقة على الطبيعة " ([5])

ولكن هذا لا يعني أنه يساوي بين المصير النهائي لإبليس والنبي عليه الصلاة والسلام كما -يذهب ما سينبون - إنما هو يحاول أن يبين قبول إبليس للعنة ، على أن يسجد لأدم لأن حبه وعشقه تجاوز ذلك برغم العذاب الذي وعد به فإن حبه لله لا مشاركة فيه/

ونستنتج من ذلك أن «الحلاج» يجعل الخير والشر متكافئان إذ يقول : " الكفر والإيمان يفترقان من حيث الاسم وأما من حيث الحقيقة فلا فرق بينهما "([6]) وبذلك " ينتهي الإسلام إلى اجتماع كامل للإنسانية وقد غفرت خطاياها "([7])

إن هذا الموقف الصوفي الثائر عند «الحلاج» يقودنا إلى فكرة أنه كان يفكر في الإنسانية بأكملها انطلاقا من الأمة الإسلامية داعيا إلى توحيد العبادات فيها بغض النظر عن الاختلافات التي يمكن أن توجد بين الأديان ويريد بالعباد العودة إلى المصدر الأول وتجاوز ضروب الشعائر ،وتمثل هذه النظرية المرحلة الأخيرة من تطور فكره لأنه كتبها عندما كان في السجن .

---

[1] -, traduit et présenté par louis Massignon, éditions du seuil, Paris 1981.

----------p21 .

[2] - سورة الأعرف ، الآية 12 .

[3] - عبد ارحمن يدون ، شخصيات قلقة بالإسلام، ص 102 .

[4] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا ص 308 .

[5] - عبد الرحمن بدوي، شخصيات قلقة في الإسلام ، مذكور سابقا ص 73 .

[6] - محمد جلال شرف ، دراسات التصوف الإ سلامي ، مذكور سابقا ص 306 .

[7] - المرجع السابق ص 208 .

الحب كتجلي للخلاص الروحي :

يعد مصطلح الحب من أهم المصطلحات الصوفية ومن أهم الحالات العشيقة عند المتصوفة ، وقد وردت تعاريف كثيرة للحب ولا شك أن الحديث النبوي الشريف الذي يقول " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب اليا بالنوافل حتى أحبه ومن أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا " لا شك أن هذا الحديث يحمل معنى الحب في أسمى صورة وأرقاها لتأكيده على إحداث العلاقة بين العبد والمعبود إلى درجة أنه لا تبقى وساطة بينهما .

وعلى غرار هذا الحديث هناك الكثير من التعاريف لبعض المتصوفة منها ما يقوله الجنيد :"دخول صفات المحبوب على البديل من صفات المحب " ويقول أبو زيد البسطامي " المحبة استغلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك ." وبذلك يكون" الحب اتصال وثيق تذوب فيه عوالم الإنسان الداخلية مع المحبوب بحيث يصيرا شيئا واحدا" ([1]) .

فالحب هو فاعليه الروح الراغبة في الاتصال مع المعشوق ، وهو الذي يسموا بنا إلى مرتبة المشاعر المثالية الخالصة ولا حرج أن نورد هنا قول القديس" برنارد "عن الحب فهو يقول : "الحب كاف في ذاته يبعث المسرة

---

[1] -مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا،ص 535 .

بنفسه ولنفسه وهو بذاته فضيلة تحمل ثوابها في ذاتها والحب لا يبحث عن علة أو سبب ولا ثمرة من ورائه ، فثمرته استخدامه ، فأنا أحب لأنني أحب ، وأنا أحب حتى أستطيع أن أحب فالحب إذا حقيقة عظيمة ..."([1])

وتوجد تعاريف كثيرة للحب ارتبط بعضها بعلاقة الإنسان بالآخر ، في حين كان بعضها تعبيرا عن السمو بالمشاعر والتعالي عن المحسوس والتوجه إلى الخالق ، ونجد هذا النوع الأخير من الحب عند الصوفية خاصة،و لا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى مفهوم المحبة عند «الحلاج» فهو يقول : " حقيقة المحبة قيامك مع حبوبك بخلع أوصافك "([2])

فكيف عبر «الحلاج»عن حبه ؟ وكيف أحب الله ؟ وما علاقة هذا الشعور الحارق بموته ؟

لقد تجسد هذا الحب الحلاجي في لحظات العشق التي أضنته وأرقته وما تخلص منها إلا بالموت ، لذلك قيل " الحب أوله ختل وآخره قتل " ([3]) ، ومعنى ذالك أن الحب يكون في البداية معاملة الله عبده بالرفق وتوالي النعم عليه ، وأخره قتل أي ألم وسقم لأن العبد إذا أحب الله ودامت معاملته له اطلع من صفاته تعالى على ما يحثه على طلبه له ويشغله عن غيره فإذا وجد اللذة في كمال شغله ثم حجب عنها تألم وسقم ، وهو ما حدث للحلاج شهيد العشق الإلهي .

فلقد أحس «الحلاج» باشتياقه الشديد إلى الله " وأحس بالغيرة العاشقة لله وقد ورد في الأحاديث لا شخص أغير من الحق إحساسا سيألم له صابرا " ([4]) ،فاختار الصبر على تعذيب روحه وجسده بالمجاهدات والقيام والصلاة والصيام والنوافل والحج والارتحال من بلد إلى آخر والصمود أمام الحكم بالإعدام ، والتعذيب على أن يتراجع عن حبه لله وعن عشقه له ، لأنه كان يعلم أن محبة الله وتوحيده ([5]) لا يمكن بلوغها إلا إذا نبعت من ذات مريرة لله ، ولما سئل «الحلاج» عن المريد من هو قال : " هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى ولا يعرج حتى يصل " ([6]) .

وكان «الحلاج» مثالا للمريد لأنه غاص في محبة الله إلى درجة أنه لم يأبه إلى نتائج ذلك فكان يدخل في رحاب الحضرة الإلهية فيجهد جسده بالعبادة ، فيخرج من حالة الوعي إلى مرتبة يحس فيها باقترابه بالله ، وبحبه الشديد " فمن لاحظ الأعمال حجب عن المعمول له ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال " .

---

[1] - جيمس .ب، كاس الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ،مذكور سابقا، ص 101 .

[2] - القشري ، الرسالة القشرية ، مذكور سابقا .ص 173

[3] - المرجع السابق ص 174 .

[4] - عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الإسلام، ص 64 .

[5] - حول فكرة التوحيد اختلف المؤرخون والفقهاء فيما إذا كان «الحلاج» حلوليا أم كامن منزها ، فكان يقول " أنا الحق ، وكان يقول من جهة أخرى " من ضن أن الإلهية تمتزج بالبشرية فقد كفر فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم ولا يشبههم بوجه من الوجود ولا يشبهونه "

[6] - عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 64

وفي غمار هذه التجربة الروحية التي تمثل حالة السكر بل تتجاوز السكر العادي كان يرتقي «الحلاج» بكل ذاته رغبة في الفناء في معشوقة ، وكان يدرك أن هذا النوع من الحب ليس هينا وسيؤدي به إلى الموت أو الصلب كما كان يقول في الديوان :

سكرت من المعنى الذي هو طيب ولكن سكري بالمحبة أعجـــب

وما كل سكران يحد بواجب ففي الحب سكران ولا يتأدـــب

تقوم السكارى عن ثمانين جلدة صحاة وسكران المحبة يصلــب

وكان «الحلاج» دائم الشوق والاشتياق إلى معشوقه و يعلم أن هذا الحب ليس بالهين ،لأنه يمثل جزءا من ذاته ، ولا يمكن للمرء أن يعيش بدونه ، و«الحلاج» يعبر عن ذلك في مواضع كثيرة سنختار منها هذه الأبيات على سبيل الاستشهاد : والله ما طلعت [1]

فاستولى بذلك الله على قلب «الحلاج» فكان يقول : " إذ استولى الحق على قلب أخلاه من غيره وإذا لازم أحدا أفناه عمن سواه وإذا أحب عبدا حث عباده بالعداوة عليه ، حتى يتقرب العبد مقابلا عليه " [2] ، فكان قلب «الحلاج» خاليا من غير الله .

مكانك من قلبي هو القلب كـــــله فليس لخلق في مكانك موضــع

لذلك لم يستطع «الحلاج» أن يكتم حبه واشتياقه كما فعل المتصوفة الآخرين ، وأعلن عما كان يشعر به وجاهد نفسه في العبادة والصلاة ففي " الليل كان يصلي عند القبور " [3] ويروى أنه كان يبكي عند قبر أحمد بن حنبل ويقول : " يا من أسكرني بحبه وحيرني في ميادين قربة ، قيمتك بالعدل لا بالاعتدال وبعدك بالعزل لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم لا بالانتقال" [4].

"وفي النهار يضل يلقي على قارعة الطريق في العاصمة بالأقوال الغريبة "[5] لأنه لم يستطع أن يخالف مطالب روحه في العشق الإلهي ، ورفض أن تكون حقيقته الداخلية العميقة مخالفة لذلك ، فأعلن وهتف بين الناس في حالات من السكر والوجد بما تتوق إليه روحه ولم يكتم أسرار قلبه فامتزج الشوق بالواحد في لحظات من السكر مخلفة جسدا غائبا عن الوعي منهمكا في الذكر والرجاء والتوسل سكران بالموت فكان يقول :

تجاسرت فكا شفتك كما غلب الصبر

---

[1] - المرجع السابق، ص 180 .

[2] - المرجع السابق، ص 68

[3] - المرجع السابق ص 69 .

[4] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 283 .

[5] - عبد الرحمن بدوي ، شخصيات قلقة في الإسلام ، مذكور سابقا، ص 69 .

وما أحسن في مثلك أن ينتهك الستر [1].

ولا شك أن هذه المكاشفة والإعلان عن الإسرار هو ما أذن إلى مصرع «الحلاج»، فقد كان يقول الشبلي : " كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا ، إلا أنه أضهر وكتمت " [2] .

لقد استولى هذا الحب على قلب «الحلاج» فكان يصيح في الناس عندما يفيض شوقا إلى الله " يا أهل الإسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فآنس بها ، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها وهذا دلال لا أطيقه " .

هي إذن كلمات كانت تنبع من شخص «الحلاج» عندما لا يستطيع أن يقاوم هذا العشق الإلهي ، وعندما تتعب نفسه وجسده من المجاهدة فإنه كان يطلب الإغاثة والإعانة لأنه لم يستطع أن يتحمل، فليس هناك أقوى من هذه الكلمات التي تعبر عن حالة العاشق القوي والتي تجعل منه دائم البحث عن الوصول وإرضاء المعشوق .

و«الحلاج» عندما يكون في هذه الحالة من الوجد يكون بذلك قد تجاوز ببدنه حد الموت واستولى على قلبه ذلك العشق الإلهي فكان يستغيث بالله بأن يزيل عنه هذا العناء والعذاب الذي كان بالنسبة له أشد من عذاب الصلب فأنشد يقول :

بيني وبينك إني ينازعني فارفع بأنيك إني من البين

" أي أنه يوجد بيني وبينك يا إلهي إني " أنه أنا يعذبه فأتوسل إليك أن تزيل بأنيك اني وأنه أنا تزيله من البين أي من بيننا نحن الاثنين "[3]

لقد تجاوز هذا الحب حدود الصرخة التي ينطق بها المريد في رحاب الحضرة الإلهية ، وتجاوز الإحساس بالاشتياق إلى حالة تعذيب الذات ، فقد كان «الحلاج» يعذب ذاته بذاته فهو يقول : " يا ويح روحي من روحي فوا أسفي على مني فإني أصل بلوائي

كأني غرق تبعد أناملـــــه ثغوثا وهو في بحر من ماء .

إن هذا العشق قضى على «الحلاج» قبل أن يقضي عليه يوم الإعدام ، لأنه كان ضعيفا في مواجهة العشق الإلهي وكان قويا عندما صلب ، ولم يستطع أن يقاوم حالات الجذب والاشتياق فجاهد جسده للوصول إلى معشوقه ، وقاوم بكل قوة يوم صلب وقطعت يداه ورجلاه ، فأي الموتتين أهون إذا قارنا ؟ هل الموت الذي كان معذب فيه في اشتياقه وحبه لمعشوقه، أم الموت الذي يتخلص من خلاله من هذا العذاب القوي ؟

---

[1] - الحلاج ، ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين ، مذكور سابقا،ص 187 .

[2] -محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا ص 265 .

[3] - HUSAYN MANSUR HAlLAJ, DIWAN, traduit et présenté par louis Massignon, éditions du seuil, Paris 1981.

. p36----

هي إذا الإجابة التي يمكن أن تقرر أو توضح موقف «الحلاج» من الإعدام والصلب والصمود في الليلة التي كان يعرف فيها بأنه رفاته سوف يحرق ، وكان يؤمن بأن هذا هو موت الجسد وأن الإنسان ما دام في اشتياق إلى ربه فإنه لن يموت لذلك نجده يقول " لن يعش أبدا من يعيش قلبه من العشق " (4)

فلم يأبه «الحلاج» بالموت الموعود ولم يطلب الرحمة يوم ضرب وقطعت يداه ورجلاه ، وإنما حتى في أخر لحظات حياته كان يعطي المثال على عمق صوفيته وعلى اشتياقه " فكان موته معركة فردية في مبارزة فردية هي جهاد مقدس قد دهن وجهه بالدم المتساقط من أعضائه المبتورة حتى لا يبدو شاحب الوجه، وهذا البطل المجاهد انتهى بان قتله الله في معركة فردية "([1]) لأن «الحلاج» كان يبحث عن حرية روحه وذلك من خلال تعذيب جسده كبرهان على ذلك ، أما " الموت البيولوجي يكاد يكون عديم الدلالة بالنسبة للصوفي ، فلا هو شر في ذاته ولا هو شيء يستحق الترحيب به ، فهو ليس نقطة الدخول إلا في حال أخر من الوجود و لا هو نهاية لهذا الوجود " ([2]) .

لذلك كان «الحلاج» يضحي بجسده قربانا و كان كلما قسي على نفسه أحس أنه لم يصل بعد ، فكانت كل شطحاته في رحاب الوجد والطرب عبارة عن توقه واشتياقه إلى المطلق ، ولم يكن الجسد حينها سوى مجرد آله تقوم بحركات قوية قوة روح «الحلاج» التي كانت تسعى إلى الراحة من عذاب الاشتياق والحب .

فكانت كل سعقاته وشطحاته وعباراته الواضحة والمبهمة والدم الذي يخرج من فمه وأنفه إثر قوة النفث بمثابة الطريقة التي تنطلق الروح من خلالها إلى المطلق معبرة بذلك عن الأزلية " وذلك لأنه يرى الله رؤية قلبية ويستدل على الله به ، فالله عند «الحلاج» ليس في حاجة إلى دليل عقلي أو حسي فالدليل منه وإليه وبه ، فهو دليل على نفسه ، وهو طريق صوفي شهودي ذوقي لا يرقى إليه إلا كل من جاهد واجتهد في الوصول إلى المحبة الإلهية مقصد كل عارف بالله "([3]) ، وهذا هو مقصد «الحلاج» وكل شغله وما شغله عن العالم كله .

لقد أدرك «الحلاج» أنه سيموت لا محالة لأنه أراد الوصول إلى ذروة العشق الإلهي أو كما يسميها " عين الجمع " فأنهك جسده بالرياضات وكان دائم الاحتجاج على نفسه والسخط عليها ، فكان دائما يرجوا الله أن يخلصه منها ، فتمنى بكل شرف اليوم الذي يموت فيه ويستعجل الناس لقتله ، لأنه كان يعلم بأن هذا الموت العضوي أهون بكثير من ذلك الموت الذي يعيشه كل ليلة وكل لحظة من لحظات اشتياقه ، وكان يعرف أن ذلك

---

[1] - المرجع السابق

[2] - جيمس ب كادس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا ص 89 .

[3] - محمد جلال شرف – دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 291 .

سيقربه من معشوقه فكان ينتظر قرب هذا اليوم الذي يقتل فيه لتخلص نفسه ويقترب من ربه الذي عشقه وأحبه ففني فيه "([1]) .

الفصل الثالث :

- **مقاربة بين الموت عند «سقراط» و"الحلاج» وأثر كل منهما على الفلسفة والتصوف على حد السواء**

[1] - المرجع السابق ص 313 .

لماذا «سقراط» و«الحلاج» ؟

قد يتساءل البعض عن السبب الذي دفع بنا إلى الجمع بين هذين الحكيمين وعن العلاقة التي يمكن أن تكون بين فيلسوف يوناني لم يكتب شيئا ولم يؤمن بأي ديانة سماوية ، وبين أحد أعلام التصوف الإسلامي الذي أفنى عمره في العشق الإلهي، فقد تبدو هذه المقاربة غير ممكنة للوهلة الأولى وإن كان «سقراط» قد تصوف في حياته و«الحلاج» أيضا قال عبارات تفلسف فيها .

إلا أن ما يدفعنا حقيقة إلى ذلك هو أحادية الرأي والموقف ، إذ أن كل منها تعامل مع الموت بطريقة مغايرة جدا لما ألفناه واعتدناه ، وتحول هذا المصير الحتمي من استحالة الوجود إلى إمكانيته أين يصل كل منهما إلى الحقيقة ، وإن اختلفت طبيعة هذه الحقيقة .

هذا بالإضافة إلى أن تاريخ الفلاسفة والمتصوفة يشهد على أن الكثير منهم رفض من طرف الحكومة وأدين ، ويشهد على من قال كلمة حق وأعدم، ومن قال مثل«الحلاج» قولا فيه شبه من الحلول وقبل ، فعلى سبيل المثال أنا كسا غور " الذي لم يتمكن من التخلص من الإدانة في عام 430 ق.م ،لأنه تجرأ على تجريد الشمس والقمر من القداسة بالتأكيد على أنهما كتلتين مشتعلتين . ولم يكونا سوى حجرين ، وبكونه غريبا اكتفي بنقله وكان المصير عينه ينظر بعد خمس عش سنة بروتاغورس Protagoras أفضل ممثل الأنوار والآتي من أبدير Abdère والمتهم باللاادرية ([1]) ،وديـاغوراس diagoras الأكثر ظلمة والآتي من ميلوس mélos والمتهم صراحة بالوثنية، وأكمل سقرلط اللائحة الطويلة للمثقفين المضطهدين "([2])

وأيضا هناك شخصيات كثيرة في التصوف حكم عليها بالموت لقولها كلمة حق.

لا شك أن «سقراط» قد اختلف عن جميع حكماء اليونان وعن كل من أدين من الفلاسفة ولا شك أيضا أن «الحلاج» اختلف عن كل المتصوفة ليس المسلمين فقط ، بل كل متصوفة العالم.

لتلتقي الفلسفة مع التصوف في بحثها عن الحقيقة أو بالأحرى لتتحول من فلسفة في الموت إلى فلسفة في البحث عن الحياة الحقيقية والخالصة .

فقد اجتمعت الحقائق الروحية ومطالب الخلود وأيضا الثورة ضد كل تقليد وضد الخطأ والظلم والفساد عند كل من «سقراط» و «الحلاج»

---

[1] - اللاأدرية هي مذهب اللاأدريين القائلين بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

[2] - فرانسيس ولف ،سقراط، ذكور سابقا ، ص 32 .

متجسدة في موقف فريد وشجاع أمام أقوى شيء يتحدى الإنسان في حياته وهو الموت ، فكان هذا الأخير يحمل معنى جديد مع هذين الفيلسوفين ليتحول من قوة قاهرة ومن مصير حتمي ومصدر للخوف والرعب إلى بوابة على الخلود والخلاص الروحي .

فلا يزال «سقراط» حيا إلى يومنا هذا بفكره وفلسفته ومواقفه وكل يوم إلا وتصدر عنه دراسة جديدة ، كما لا يزال «الحلاج» حاضرا أيضا بثورته الروحية وصوفيته الثائرة ، محققين بذلك خلودا لأفكارهما رغم موتها ، فهذا الأخير لم يقضي عليها نهائيا وإنما لا يزال حضورهما خالدا في الذاكرة الفكرية من خلال الدراسات والبحوث المختلفة ، ولو أن هذه الفكرة الأخيرة لا تتطابق مع ما كان يصبو إليه كل من هذين الحكيمين ،لأن سعيهما كان يهدف إلى غاية سامية رغم أن الاتهامات التي وجهت لهما كانت باطلة ، وكانت فقط مجرد تآمر وحجة رفعها ضدهما من كانت مصالحة في خطر أمام أفكارهما ونفوذهما وشعبيتهما ، وثورتهما ضد كل تقليد وضد الظلم والاستبداد فحكم عليهما بالإعدام .

لكن رغم ذلك لم يتراجعا ولم يتوقفا عن نشر أفكارهما ، وكان يستطيع «الحلاج» أن يرجع عن أقواله التي أوخذ بها لكي ينجو، لكنه رفض – كما رفض «سقراط»- الهرب من السجن دفاعا عن الحقيقة ،" فالحلاج كان صاحب دعوة ولا بد أن يخلص لها وأن يكون نموذجا فريدا يحتذ يه تلامذته ومريدوه ، حينئذ اختار «الحلاج» الشهادة راضيا" ([1]) .

لأن الموت في تصورهما هو طريق الخلاص من سجن الحياة وأن رسالتهما هي في الحقيقة سعي إليه أو بالأحرى ممارسته والتدرب عليه كما يشير إلى ذلك «سقراط» ، وهو أيضا عند «الحلاج» تقرب من المعشوق وفناء فيه ، " فالحلاج تمنى هو نفسه قرب هذا اليوم الذي يقتل فيه ([2]).

وبالرغم من أن «سقراط» لم يكن يؤمن بأي ديانة سماوية على عكس «الحلاج»، وكانت اعتقاداته وأفكاره مختلفة أيضا ، إلا أن كلاهما أدرك أو وصل إلى نفس الفكرة وانطلق من نفس المبادئ فتجربتهما تجسد مشهد الدفاع عن الحياة الفكرية والروحية .

فرفضا انتشار الأفكار الخاطئة والظلم رغبة منهما في نشر السلام والعدل ، وإحقاق الحق ، وتجسد هذا من خلال مواجهة «سقراط» لأفكار السفسطائيين ودعوة أهل أثينا إلى البحث عن المعرفة الخالصة والحقيقية ، وسعي«الحلاج» إلى توحيد الأمة الإسلامية أو بالأحرى و كما يقول ما سينيون" توحيد الإنسانية عبر الأمة الإسلامية" ، وإلى تأسيس دولة عادلة قائمة على أسس العقيدة لرفع الظلم والاستبداد القائمان آنذاك .

ولم يتوقف أي منهما أو يتراجع عن هذا المسعى النبيل ، فكانا ينشران أفكارهما حتى في آخر لحظات حياتهما ، فكان «سقراط» كما ذكرنا يعلم

---

[1] - محمد جلال شرف- دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا ،ص 313 .

[2] - المرجع السابق . ص 313 .

تلاميذه في السجن وقبل موته بلحظات فواصل رسالته التي كان مكلف بها من طرف الإله ، ويوم حوكم بدل أن يلجأ «سقراط» إلى "استخدام القوة المقنعة للمرافعات المقنعة التي تعود عليها الجمهور والتي كان بإمكانها بسهولة كسب عطف القضاة ، تشبث بنهجه في الامتحان الأخلاقي وتهكم على الاتهام ، وباختصار كرر الجرم والأكثر من ذلك استخف بالشكوى الخطيرة ، وهزأ المتهمين وهم أقوياء ، حتى أنه أدعى إعطاء دروس في الأخلاق والمواطنة لهيئة المحلفين " ([1])

ونفس الشيء بالنسبة " للحلاج " الذي حول السجن إلى مدرسة ينشر فيها أفكاره . وهو ما يؤكد سعيه إلى الحقيقة والخلاص الروحي لذلك " آثر «الحلاج» توطين نفسه على الاستشهاد وتشجيعها على مواجهة الموت ودفعها إلى البعث المجيد ... ففي سبيل الحقيقة الخالدة ضحى «الحلاج» بأعز ما يملك ، لأنه علم أن الحب دينه ودينه لا يرجع عنه ولو لاقى في سبيله حتفه ومصيره الأخير "([2]) .

وأكبر شيء تشابه فيه «سقراط» و«الحلاج» هو تلك الشجاعة النادرة في مواجهة الموت المنبعثة من الإيمان الكامن في داخلهما بالعدالة الإلهية ، وبأن الموت هو الطريق إلى الخلاص والوصول إلى الحقيقة ، وهو ليس بشر كما يعتقد الناس وإنما هو مصير لا بد منه يخلص الإنسان من سجن الحياة ، لذلك يقول «سقراط» " أولائك الذين تقرر أن حياتهم ذات قداسة متناهية ، فإنهم يتحررون فورا من أعماق الأرض ويطلق سراحهم مثل الطيور التي تحلق في الفضاء ، ومنهم من يصل إلى عليين" ([3]) .

الموقف نفسه عند «الحلاج» عندما اعتبر أن الحياة هي سجن للإنسان ولن يتخلص منه إلا من خلال الموت ،ويبدو أن ذلك هو الذي رسم تلك السعادة على وجهيهما واستعجالهما للموت على عكس ما ألقناه فلم يخافا ولم يطلبا العفو أو الرحمة ، وإنما صمدا في أصعب مراحل حياتها وها هو«سقراط» يتجرع السم وهو يبتسم وراض بمصيره ،و يحدث أصدقائه ويناقشهم في مواضيع مختلفة في الفن والموت والروح وغيرها .

ويخرج «الحلاج» في صبيحة يوم الثلاثاء من سنة 309 هجرية 966 م متبخترا رافعا رأسه واثقا من نفسه ، وكأنه كان يبلغ رسالته إلى الحاضرين ومن ثمة إلى كل الناس مؤكدا على موقفه ومؤمنا بأن ذلك هو حكم الله وليس حكم القضاة وأنه بالموت سيحقق الالتقاء بمعشوقه ويتخلص من سجن الحياة ، فقد كان يقول وهو مقيد بالسلاسل :

ندیمي غیر منسوب إلى شيء من الحيف ([4]) .
سقاني مثلما یشـــر ب،فعل الضیف بالضیف
فلما دارت الكاــس دعا بالنطع والسیـــــــف

---

[1] - فرانسيس ولف ، سقراط ، مذكور سابقا ، ص 85-86 .
[2] - مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام،مذكور سابقا، ص 516 .
[3] الأصول الأفلاطونية ، فيدون وكتاب الثقافة المنسوب إلى سقراط ، مذكور سابقا ص 125 .
[4] - ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين، مذكر سابقا ، ص 181 .

كذا من يشرب الـرا ح مع التنين في الصيــف

وإذا كان التصوف يعني في أحد معانيه مجاهدة النفـس بالعبـادة وتنقيتهـا من كل لذة وميل والابتعاد عـن مطـالب الجسـد للارتقـاء إلـى مقـام الأوليـاء والدخول في تجربة روحية ذوقية تجعل من صاحبها غائبا عما سوى اللـه كمـا هـو الحـال عنـد «الحلاج» ، فـإذا كـان التصـوف كـذلك ألا نجـد «سـقراط» متصوفا عندما كان يدعوا إلى التطهير وتخليص النفـس مـن مطـالب الجسـد والفضيلة للوصول إلى المعرفة والارتقاء إلـى المرتبـة الخالصـة ، وحـتى وإن كان لا يعتنق أي ديانة سماوية إلا أنه من أكبر المتصوفة العالميين .

وإذا كان "ابـن عربـي" يقـول أن التصـوف هـو " إتيـان مكـارم الأخلاق وتجنب سفسافها"([1])

وإذا كان " وريم بن أحمد البغدادي " يقول: " التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار وترك التعـرض والاختيـار" ([2]).

وإذا كان «الحلاج» يقول :

ليس التصوف حيلة وتكلفا وتقشفا وتواجدا بصياح
ليس التصوف كذبة وبطالة وجهالة ودعاية بمزاح
بل عفة ومروءة وفتوة وقناعة وطهارة بصلاح
وتقى وعلم واقتـــــداء والصفا ورضى وصدق والوفا بسماح

([3])

فإذا كان التصوف كذلك فإن «سقراط» اتصف حقا بهذه الصـفات ففيمـا يخص الأخلاق هو لم يتميز بها فقط ، ولم يأتيها كما يقول ابن غربي ، بل قـدم لنا مذهبا في ذلك فهـو " أول مـن مـذهب الأخلاق ووضـح لهـا نظامـا موحـدا متماسك الأجزاء واضح المعالم وراسخ البيان "([4])

وليس هذا فحسب فقد كان زاهدا في لبسـه وفـي تصـرفاته ،والكـثير مـن المؤرخين من يشير إلى فقـره وبسـاطته وهـو مـا يجسـد زهـده فـي الحيـاة والابتعاد عن ملذاتها ، ولا شك في أن «سقراط» قد اتصف بالصفات التي يشير إليها «الحلاج» في تعريفه للتصوف ، إضافة إلى أنه لم يكـن يرغـب فـي المناصب العليا أو السياسة وإنما كان راضيا بما هو عليـه سـعيدا بالرسـالة التي كان مكلف بتبليغها.

وكما كان «الحلاج» يعتبر الجسد مصدر كل لذة وهوى وحوله إلى مجـرد جثة غائبة عن الوعي تتلاشى تدريجيا خلال تجربة روحية ذوقية في معشـقوها ،وأن هذا الجسد يعيق الإنسان في بلوغ المقام و لا بـد مـن قتلـه حـتى يقضـي على كل لذة وشهوة ، والانشغال فقط بحب لله .

---

[1] - رسائل ابن عربي ، تقديم محمود الغراب ، ضبط محمد شهاب الدين العربي ، دار بيروت ط 2 سنة ،1947 ص 541 .

[2] - أبي القاسم عبد الكريم بن هو زان بن عبد الملك ، الرسالة القشيرية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط 2 سنة 2003 ص 152 .

[3] - ديوان الحلاج ومعه أخبار الحلاج وكتاب الطواسين ، مذكور سابقا نص 175 .

[4] - عبد الرحمن مرحبا

كذلك «سقراط» اعتبر الجسد عائقا أمام المعرفة ومصدر كل لذة وشهوة ، لذلك لا بد من التخلص من مطالبه حتى يتمكن الإنسان من بلوغ الحقيقة ومن ثمة الخلود ، فهو يدعو إلى "وضع النفس بعيد عن الجسد بقدر الإمكان ، ،وتعويدها أن ترجع إلى ذاتها وتجمع ذاتها متخلصة من كل وجهة من وجهات الجسد ، وأن تعيش ما استطاعت في الظروف الحالية تماما كما تعيش في الظروف المستقبلية منفردة في نفسها ، منفصلة عن الجسد كما لو كانت قد تحللت من قيوده " ([1]).

كل ذلك يجسد تواصلا روحيا وفكريا بين فلسفة سقراط المتصوفة وصوفية الحلاج المتفلسفة يمزج بين الرؤية الفلسفية للموت والتجربة الروحية له .

بداية أم نهاية استشهاد أم إعدام :

لا شك أن هذا العنوان يعيدنا إلى الفصل الأول ويدفعنا بشكل أو بآخر إلى محاولة فهم معنى الموت إذا كان بداية أم نهاية وبداية لماذا ؟ ونهاية لأي شيء ؟ قد تبدو هذه الأسئلة سهلة الإجابة وواضحة ويستطيع أن يجيب عليها أي إنسان فيقول نهاية للحياة وبداية للموت الذي لا نعرف عنه شيئا ، والإجابة بطبيعة الحال تكون متوافقة مع اعتقاد المجيب ومع المذهب والمحيط

[1] - أفلاطون ،الأصول الأفلاطونية فيدون وكتاب الثقافة المنسوب إلى سقراط ، مذكور سابقا ، ص 39 .

الاجتماعي وجميع الجوانب الأخرى التي من صلاحياتها أن تتحكم في تكوين شخصية الإنسان ومن ثمة في تكوين أفكاره .

لكن هل تكون هناك إجابة مقنعة ؟ وهل هي إجابة نهائية ومطلقة وموقفة لكل سؤال ؟ خاصة عندما تتعلق بموضوع كهذا.

ونحن سنترك الحرية لكل قارئ ليقدم إجابة خاصة به وتريحه وسنقصر اهتمامنا هنا على «سقراط» و«الحلاج» هل كان الموت بالنسبة لهما نهاية أم بداية ؟ وإن كان يحتمل إحدى الإجابتين أو كلهما فكيف ذلك ؟

ثم أننا عندما نقول إعدام أو استشهاد فإننا نضع أنفسنا أمام مفهومين مختلفين لها نفس النتيجة وهي الموت ، فالإعدام نقصد به أن الشخص المعدم يكون متهما أو قام بجريمة ما يستحق بسببها هذا الحكم .

أما الاستشهاد فيحمل معنى آخر مغاير وهو بطبيعة الحال موت ، لكن هذا الموت تختلف ظروفه وأسبابه عن موت الإعدام لأنه نابع من الإدارة وقائم على مبادئ وقيم أخلاقية وروحية " فقصة مصرع «الحلاج» وما سبقها من محاكمة صارت أحداثها في بغداد ، يصح أن تصبح مسرحية تراجيدية بطلها استشهد في سبيل حبه لله أو أنها لتعيد إلى أذهاننا قصة انتحار سقراط راضيا كالحلاج في سبيل الوصول إلى الحقيقة "([1]) .

وبما أن الإعدام والاستشهاد نوعان من أنواع الموت أو بالأحرى طريقة للموت ، فهل هما بداية أم نهاية ؟ وهل «سقراط» و «الحلاج» شهيدان أم يستحقان الإعدام ؟

سننطلق بداية من موقف «سقراط» و «الحلاج» في فهمهما لهذا المصير الذي آمنا ورضيا به ، محاولين بذلك أن نفهم إن كان ذالك استشهادا أم إعداما .

فسقراط كان " لا يعتبر الموت شرا بل يرى فيه الخير كل الخير " ([2]) ، ولم يكن يخاف منه أو يحس بالتوتر ، وإنما واجه مصيره بكل شجاعة نابعة من دافع الإيمان بالغيب الذي يقتضي عدم رد القضاء ولو كان في ستر النية والخفاء ، وإنما يقتضي طلب اللطف الإلهي فيه "([3]) .

ولم يتراجع عن دعوة الناس إلى الحق والعدل والفضيلة والبحث عن المعرفة الخالصة وطاعة الآلهة وقانون المدينة ، ولو كان ذلك يكلفه حياته لأنه كان يؤمن بالرسالة التي كان مكلف بها "فكان يفضل الموت على عدم طاعة الله ولو أطلقوا سراحه لأستمر في تعليم الشباب " ([4]).

إذا هي شجاعة في مواجهة الخطأ ومواجهة الموت وإدراك ذاتي بأنه لا يقوم إلا بما هو خير ولا يقول إلا ما هو حق وإن كان ذلك ثمنه حياته ، فكان الموت في نظره أهون من السكوت على الخطأ والظلم فقد كان يقول أنه " لا

---

[1] محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا، ص 310 .

[2] - يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ص 56 .

[3] - محمد مجدي ابراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 130 .

[4] - المرجع السابق ، ص 122 .

يأسف على شيء ، لأنه لم يفعل ولم يقل إلا ما بدا له أنه حق ، ويؤكد أنه مرتبط بالموت "[1] .

أو ليست هذه تصرفات من يحيا في سبيل الحق والعدل وإن مات يموت شهيدا ، فهذه فقط بعض مواقف «سقراط» وأحواله وهناك الكثير منها التي يعتبر نفسه فيها مجاهدا في سبيل الحق وأنه إذا حكم عليه بالموت " فلن يثنه عن مواجهة الموت سوء الأحدوثة أو إلحاق الأذى بالأشياء [2].

والأحداث نفسها تتكرر مع «الحلاج» ، فقد كان يدعو الناس إلى إحقاق الحق والعدل ورفض المألوف من التقاليد الدينية التي اعتاد عليها الفقهاء ، وتوحيد الأمة الإسلامية وكان يواجه الظلم بكل شجاعة وتحدي وقوة ، وإن كان ذلك سيكلفه حياته ، فهذا أيضا موقف من أعظم المواقف الإيمانية في مواجهة الموت "لاكراهية للقضاء ولا رد له ولا معقب لحكمه حين يجيء ولو ذهقت فيه الأرواح وذلك الموقف لا يحتمله إلا المؤمنون الذين توفرت لديهم الشجاعة على مواجهة الموت " [3] .

ولم يتراجع عن دعوته حتى في آخر لحظات حياته ، وعندما قطعت يداه ورجلاه كان يقول " إن رجعت عن دواعي وقولي سقطت من بساط الفتوة "[4] .

وهو ما يشير إلى قوة موقف «الحلاج» من الموت ، وعدم الاكتراث به " فقد تمنى هو نفسه قرب هذا الموت الذي يقتل فيه فتخلص نفسه ويقترب من ربه الذي عشقه ، وأحبه ففني فيه "[5]

وليس هناك شاهد على هذا الموقف الاستشهادي أكثر من أقواله وموافقة فيروى عنه أنه لما " أتي الخشية والمسامير التي سيصلبونه عليها ضحك وزعق على الشبلي : هل معك سجادتك؟ ثم صلى ركعتين فقرأ في الأول فاتحة الكتاب وقوله تعالى " لنبلونكم بشيء من الخوف والجوع " وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب وقوله تعالى : " كل نفس ذائقة الموت " [6].

فهذه أيضا مواقف الشهداء من ارتضوا حياتهم خدمة للحق وفي سبيل الله ، أليس إذا موتها استشهادا ؟ رغم أنه حكم عليهما بالإعدام ؟.

قد يبدو العرض السابق محاولة لتبرير مواقف «سقراط» و«الحلاج» وإدخالهما ضمن قائمة الشهداء ، مع أن الاتهامات التي وجهت إليهما هي اتهامات قوية ويعتبرها الكثير من الباحثين حقيقية ويستحقان من خلالها الموت .

فكما هو معروف أن «سقراط» أتهم " بإنكار آلهة المدينة والاستهزاء بهم وإفساد عقول الشباب " [7].

---

[1] - يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ،ص 56.

[2] -- محمد مجدي إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ، ص 123.

[3] - المرجع السابق ، ص 130

[4] - الحلاج ، ديوان الحلاج ومعه كتاب الطواسين،مذكور سابقا، ص 50.

[5] محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، مذكور سابقا ، ص 313.

[6] - عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، أعلام التصوف والمفكرين عليه والطرق الصوفية ،مذكور سابقا، ص 128 .

[7] - عبد الرحمن مرحبا ، مع الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ، ص 110 .

وأتهم «الحلاج» بتهم عديدة منها "اتصاله بالقرامطة و قوله " أنا الحق "، اعتقاد أتباعه بألوهيته وقوله في الحج ([1])"([2]).

تبدو هذه الاتهامات خطيرة في حقيقتها لكن هل هي حقيقة ؟ وهل الحكم كان عادلا أم جائرا؟

نحن لن ندافع عن هذين الصوفيين وإنما سنترك مواقفهما وأقوالهما تدافع عنها، بالإضافة إلى مواقف اللاحقين من الفلاسفة والمتصوفة المسلمين و المستشرقين من هما .

أما «سقراط» فقد اعتبر في نظر الكثير من الفلاسفة خاصة والباحثين والمفكرين عامة شهيدا في سبيل الحق وفي سبيل قانون المدينة ، فكان مثالا للأخلاق السامية ، والمبادئ الحقيقية وشهيدا للفكر - كما كان «الحلاج» شهيدا للتصوف الإسلام -، وكان من جانب آخر في نظر الكثير أحد المفسدين والمتجاهلين لآلهة المدينة ، ويعتبر من طرف البعض مجرد شخصية أسطورية لا وجود لها صنعها أفلاطون من خلال محاوراته .

لكن أغلب الدراسات إن لم نقل جميعها تتعامل مع «سقراط» كشخصية واقعية وموجودة ، وقد دافع «سقراط» عن نفسه ، لكن لم يكن ذلك لطلب العفو أو لتخفيف الحكم ، ولم يستعمل حكمته وأسلوبه الخطابي لاستعطاف القضاة ، وإنما أستعمل ذلك للتأكيد على موقف وأنه لو أطلقوا سراحه لواصل رسالته في تعليم الشباب ودعوتهم إلى الفضيلة وأنه لم يتنكر لإلهة المدينة فهو يعترف بوجودها لذلك نجده يقول في الدفاع :" أنا أعزكم أيها الأثينيون وأحبكم ولكني أطيع الإله أكثر مما أطيعكم وطالما بقي في نفس وكنت قادرا على ذلك فلن أتوقف على التفلسف وعن حثكم موصي في كل مناسبة من ألقاه في طريقي منكم ، ومتكلما على الطريقة التي اعتدت عليها " ([3]),

ويشير الكثير من الباحثين إلى أن محاكمة «سقراط» و»الحلاج» وإن كانت تبدو في ظاهرها دينية إلا أنها قضية سياسية محضة ،" فالطابع الديني الذي صورت به محاكمة «سقراط» لا يمكن فهمه إلا على أضواء سياسية فتهمة الكفر بالآلهة والتي ذكرت في محاورة الدفاع لم تكن لتنتهي به إلى الإعدام ، فكثيرا ما أنكر الفلاسفة والمفكرين وجود الآلهة اليونانية وتشككوا في حقيقتها ووجهوا نقدهم للأساطير الأولمبية وأساطير هيزيود و أوفيوس وغيرهم من كتبوا على الآلهة "([4]).

وعلى غرار الثلاثة المتهمين «سقراط» بأفكار الآلهة وإفساد الشباب ، فقد اتهمه" مليتوس " بالكفر بالآلهة ، وبإدخال شياطين جديدة إلى المدينة

---

[1] - عن قول «الحلاج» في الحج قيل أنه وجدوا له كتابا حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه افرد في داره بيتا لا يلحقه شيء من النجاسة ولا يدخله أحد فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله طوفه حول البيت الحرام فإذا انقضى ذلك من المناسك ما يقضي بمكة مثله جمع ثلاثين يتيما وعمل لهم أمرا ما يمكنه من الطعام وأحضرهم إلى ذلك البيت وقدم لهم ذلك الطعام وتولى خدمتهم بنفسه فإذا فرغوا من أكلهم وغسلو أيديهم كسى كل واحد منهم قميصا ودفع إليه سبع دراهم فإذن قام له ذلك مقام الحج .

[2] عبد الرحمن مرحبا ، مع الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ، ص 110.

[3] - افلاطون ، محاكمة سقراط، المحاورات : اوطيفرون ، الدفاع ، أقريطون ، مذكور سابقا،ص 201 ، 221 .

[4] - الأميرة حلمي مطر ، الفلسفة اليونانية تاريخها وفلسفتها ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،طبعة جديدة،عام 1998،القاهرة،ص 140.

وإفساد الشبيبة وهي تهمه يستحق عليها عقوبة الموت واتهمه أيضا ليقون وأنيثوس ، لكن ذلك يعود إلى أسباب شخصية لأن «سقراط» كان يحرج هؤلاء وغيرهم بالأسئلة فيظهرهم للعامة بأنهم لا يملكون أية معرفة أو حكمة .

ونفس الموقف يعيد نفسه مع «الحلاج» وعلاقته بالجنيد هذا الأخير الذي اتهمه بالخروج عن قواعد الصوفية ويجب إعدامه فقد كان " يهاجم «الحلاج» جهرة في غضب وتطرف ويرميه بالسحر والشعوذة "([1]).

وهو ما يشير إلى أن الاتهامات التي وجهت إلى كل من «الحلاج» و «سقراط» كانت تحمل خلفيات كثيرة أغلبها سياسية فسقراط أظهر " بغضها للديمقراطية الأثينية ، ولم يكن من ناحية الوجدان والشعور أرستقراطيا كما لم يكن من مؤيدي مصالح الصفوة من القلة من أصحاب الامتيازات لكنه لم يستطع أن يكيف نفسه مع حكم الغوغاء الذي يتم باسم الديمقراطية "([2])

وهو ما شكل خطرا على أصحاب الحكم فأسرعوا في إعدامه حتى يتخلصوا من تأثيره وشعبيته ، فاعتبرت بذلك أفكاره ومواقفه استشهادية في سبيل الحق .

لأنه لو تراجع عن موقفه فإنه سيتراجع عن رسالته وهذا لا يتناسب مع مبادئه لذلك يصنف «سقراط» ضمن قائمة الشهداء الذين قدموا حياتهم في سبيل الحق والقانون والعدل ،لأنه كان يؤمن بأن الحياة التي يعيشها هي في الحقيقة مجرد تدرب على الموت وعلى الإنسان أن يفهم هذه الحياة على نحو إيجابي حتى يرتقي إلى مرتبة الحكماء ومن ثمة الخلود بعد الموت وهذا الأخير لا يكون إلا للشهداء " فشهادته هي شاهد على أن من يشهد بالحقيقة شهيد لا محالة فأين المفر إذا كان ثمن الشهادة الحقيقية هو الاستشهاد ، ولعل «سقراط» قد أدرك ذلك فأثر مواجهة الموت"([3]).

لكن " نيتشه" من جانبه يضعنا أمام رأي جديد لأنه يعتبر أن «سقراط» هو الذي طلب الموت وليس أثينا هي التي فرضته عليه فيراه " مهروجا يبين عن نفسه أنه ثاقب الفكر ، كان «سقراط» يريد أن يموت ، لم تكن أثينا هي التي أعطته الشوكران ([4]) وإنما هو الذي أعطاه لنفسه ، لقد أجبر أثينا على إعطائه الشوكران"([5]).

وكذلك الحلاج برر الكثير من الفلاسفة والمتصوفة العرب والمستشرقين مواقفه واعتبروه شهيدا للتصوف الإسلامي ، وأن إعدامه كان بغير حق ، وحتى «الحلاج» ذاته أنكر تلك الاتهامات ويظهر ذلك من خلال مواقفه وأقواله ، والتي سنعرض بعضها فيما يلي :

---

[1] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا ، ص 312 .

[2] - ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ،ص 93 .

[3] على حرب ، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر ، مقاربات نقدية وسجالية ، مذكور سابقا،ص 54

[4] - عشبة طبية سامة وهي التي تناولها «سقراط» يوم أعدم

[5] - فرانسيس ولف ، سقراط ، مذكور سابقا ، ص 87

إن بعض الأبيات التي ينشرها «الحلاج» تشير إشارة واضحة إلى امتزاج اللاهوت بالناسوت ، وهو ما يتجسد في فكره والحلول فقط كان يقول :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال

ويقول أيضا :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

ويقول أيضا :

وأي الأرض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك في السماء
تراهم ينظرون إليك جهرا وهم لا يبصرون من العماء ([1]) .

وهو أيضا يدعي الألوهية فهو : " قائل العبارة المشهورة " أنا الحق " وهي تعني " أنا صورة الحق الخالق " ([2]).

لكن من ناحية أخرى له أقوال كثيرة يقر من خلالها بتنزيه الذات الإلهية عن البشر وينفي الحلول والامتزاج ، فهو يقول " من ضن أن الإلهية تمتزج بالبشرية والبشرية بالإلهية فقد كفر ، فإن الله تعالى تفرد بذاته وصفاته عن ذات الخلق وصفاتهم ، ولا يشبههم بوجه من الوجوه ولا يشبهونه " ([3]).

وبالإضافة إلى تبرير «الحلاج» لنفسه نجد الكثير من الدراسات التي تعتبر أن هذه الأقوال هي في الحقيقة " لا تدل على الحلول بقدر دلالتها على اشتعال جذوة الحب الإلهي والشعور الديني العميق " ([4]) .

فأعتبر الحلاج غير مآخذ على ما كان يقوله ، لأنه قاله في حالة من الوجد والسكر حين تمله العشق الإلهي ، ففني في الله فلم يكن له ذكر غير الله فمات عن الخلق جميعا ، وأستقر في تجربة روحية فأعتبر " كلامه صادرا عن جذوة الحب الإلهي ، وحال الفناء الصوفي الذي يحتم أن يقع فيه سلطان العقل ، فيصير العاشق كالمبهوت إذا لم يعد متسعا لا لذكر غير الله ولا لذكر نفسه " ([5]) .

كما أن " الغزالي " تكلم كثيرا عن «الحلاج» وحاول تبرير مواقفه وأقواله واعتبرها نابعة من ذات مستغرقة في حب الله وغير واعية بما تقول ولم يستطع أن يكتم فتكلم ([6]) فهو يقول في مشكاة الأنوار : " ... ولم يبقى فيهم متسع لذكر غير الله ولا لذكر أنفسهم أيضا ، فلم يكن عندهم إلا الله فسكروا سكرا دفع دونه سلطان عقولهم فقال احدهم : " أنا الحق " (أي الحلاج) وقال الآخر " سبحاني ما أعظم شأني (أي أبو يزيد البسطامي) وقال

---

[1] -كامل مصطفى الشبلي، الصلة بين التصوف و التشيع،دار المعارف ط 2-1969،مصر،ص 366 .

[2] - المرجع السابق ،ص 376 .

[3] - محمد مجدي إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، مذكور سابقا ،ص 514 .

[4] - المرجع السابق ، ص 513 ،

[5] - المرجع السابق ، ص 515 .

[6] - فحال المحب على قيد الحياة يرفع عه الله بعض الحجب لأن المعرفة الحقيقة إذا استكنت في قلوب الأولياء يرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته وصفاته عز وجل من دار الحجاب ، ليعرفوه تعالى ولا يرفع الحجب بالكلية لكيلا يحترق الرأي .

الآخر " ما في الجبة إلا الله " (أي الحلاج) وحال العشاق في السكر يطوى ولا يحكى فلما حق عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الإتحاد بل شبه الإتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه : أنا من أهوى ومن أهوى أنا " ([1]) .

ولقد أفاض الغزالي كثيرا في تبرير مواقف «الحلاج»وتجاربه الروحية التي قال فيها ما يشير إلى الحلول والإتحاد فهو يرى أن ذلك هو مقام الأولياء الذين يصلون إلى حالة السكر و لا يشعرون فيها بدواتهم ، ولا بغيرهم ويكونون فقط في اتصال مع الله دون غيره " وهنا لم يستطع «الحلاج» أن يكتم سره فباح بما في قلبه وشطح بلسانه فأباح جسده للفقهاء فصلبوه وقتلوه ثم أحرقوه " ([2])

فلم يتمكن الناس والحكام والمتصوفة من فهمه فاتهموه بالسحر والشعوذة بالإضافة إلى اتهامه بالإتحاد والحلول " ولم يفهموا عباراته وشطحاته التي عبرت عن الفناء والبقاء ([3]) ، وهي من أهم مقامات الصوفية على الإطلاق ، وقد استغلوا جرأة «الحلاج» حين لم يتخذ التقية منهجا له في حياته الروحية والاجتماعية بل والسياسية أيضا " ([4]) .

وبذلك يمكن أن نقول أن من أتى بعد«الحلاج» فقد قبله وأثنى عليه " فيحكى عن شيخ العارفين " قطب الزمان عبد القادر الكيلاني " أنه قال : " عثر «الحلاج» ولم يكن من يأخذ بيده ولو أدركت وفاته لأخذت بيده "([5]) ، وقد أعتبر «الحلاج» رمزا من رموز التصوف الإسلامي فقد أشاد المسلمون من بعده بموقفه " لأنه كان في نظرهم الشهيد الذي لقي حتفه من أجل إباحته بسر ربه ولم يستخدم التقية مبدءا لحياته " ([6]) .

واعتبروا أن موته لم يكن بحق فعن " ابراهيم ابن شيبان " قال : " دخلت على ابن سريج يوم قتل «الحلاج» فقلت يا أبا العباس ما تقول في فتوى هؤلاء في قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلهم نسو قول الله تعالى: "(أتقتلون رجلا يقول ربي الله) " ([7]).

كما أن الطريقة التي اختارها «الحلاج» ليموت عليها تدل على أنه شهيد فقد كان يردد آيات الكتاب العزيز كما مات " عثمان بن عفان " وهو يردد الشهادة وكلمات التوحيد ، فكان يقول حسب الروايات أحد ، مع كل صوت ، وهذا يذكرنا : " بما وقع في الصدر الإسلامي الأول فقد قيل أن ورقة بن نوفل كان يمر ببلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعذب ويقول : أحد أحد ، فيقول ابن نوفل أحد أحد الله يا بلال " ([8]) .

---

[1] - الغزالي ، مشكلة الأنوار ، مذكور سابقا ، ص 57 .

[2] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا ، ص 303 .

[3] - يقول القشيري : أن الفناء يشير إلى سقوط الأوصاف المذمومة وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة ، وإذا كان العبد لا يخلوا من أحد هذين القسمين فمن المعلون أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة ، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه ا لصفات المحمودة ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة .

[4] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا ،ص 264 .

[5] - المرجع السابق ص 270

[6] - المرجع السابق ، ص 298 .

[7] - المرجع السابق ص 328 .

[8] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، مذكور سابقا، ص 327 .

فهذه صفة الشهداء الذين افنوا حياتهم فـي العبـادة وفـي حـب اللـه وفـي الدفاع عن العقيدة ورفض الظلم والباطل ودعوة الناس إلى الحق ولو كلفهـم ذلك حياتهم " فطريقة «الحلاج» لا ترمي إلـى تحطيـم الشخصـية البشـرية ، إلا أنه يبحث عن المعاناة بهدف معرفـة الحـب المشـبوب بالعاطفـة ، العشـق إذن جوهر الله وسر الخليقة " ([1])

إشكالية الخلود بين الفلسفة والتصوف :

تعد إشكالية الخلود من أكبر الإشكاليات التي شغلت الإنسان منذ وجوده إلى يومنا هذا وهي ترتبط بشكل أو بآخر بفكرة الموت باعتباره مناقضا لهـا ، فإذا قلنا موت فلا خلـود وإذا قلنـا خلـود فلا مـوت ، ولكـن نظـرة الفلسـفة وكـذلك التصـوف كـانت أبعـد وأعمـق فاعترفـا بوجـود المـوت مـع إمكانيـة الخلود ، وإن اختلفـت النظـرة الفلسـفية عـن النظـرة الصـوفية إلا أنـه يوجـد حضور قوي لهذا المفهوم في الفكر الإنساني سواء الفلسفي والديني .

[1] - مرسيا الياد ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي ، ج 3 ، دار دمشق ، ط 1 ، سنة 1986 – 1987 ، ص 144 .

فأول من بحث -إن صح القول - عن الخلود هو آدم في قوله تعالى :(وَيَـا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّـةَ فَكُلاَ مِـنْ حَيْـثُ شِـئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَـا هَـذِهِ الشَّـجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19)فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَـا مَـا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَـنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَـا مَلَكَيْـنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20)." ([1])

فأرتكب آدم الخطيئة طمعا في الخلود لكن هل كـان هنـاك فعلا الخلـود ؟ وإذا كنا نتحدث عن الموت من خلال تجربة الآخر فـالخلود يـدخل فيمـا وراء هذه التجربة ، وإن كنا قد شهدنا الموت من خلال لحظات المـوت الـتي تمـر عليها ، فهل شهدنا خلود من يموت ؟ وإذا كنا نعلم يقينا أننا سنموت فهـل نحـن متأكدون أننا خالدون بعد الموت ؟ هل هناك خلود حقا ؟ سؤال طرحه الإنسـان وطرحته الفلسفة كما طرحه التصوف ، وإن اختلف التصور من واحد إلى آخر.

إن الخطاب الفلسفي يثري الساحة الفكريـة حـوله لا سـيما «سـقراط» الذي تكلم في غير موضع عـن الخلـود وعـن بقـاء الـروح بعـد المـوت والتقائهـا بالآلهة والحكماء أين تكون المعرفة الخالصة . ولأن «سـقراط» اعتـاد أن يبرهن على جميع أقواله ويعطيها من القوة الفلسفية مـا يمكننـا مـن قبولهـا والاقتناع بها ، فهو عندما يقول أن النفس خالدة وأن الموت هو طريق للانتقـال من حياة فانية إلى حياة أبدية يبرهن على ذلك مـن خلال مجموعـة مـن الحجـج الفلسفية نجدها خاصة في محاورة " فيـدون " علـى لسـان أفلاطـون ، والـتي تمثل اللحظات الأخيرة من حياته .

يقصد «سقراط» بالخلود البقاء والاستمرار الذي يكون من نصيب الـروح أما الموت فيمس الجسد فقط ،والإنسان لا بد أن يؤمن بالخلود حتى يتمكن من الوصول إلى المعرفة الخالصة لأن الروح تعد من طبيعتها"فمـن طبيعـة الـروح انه لا يمسها الموت ،وايضا المعرفة بدون المـوت لا يمكنهـا أن تصـل إلـى هـذة الطبيعة التي تندرج ضمن الوجود الحقيقي ولا يمكن تحصيلها"([2]) ، فهو يؤكد أن إدراك هذه الطبيعة يساعد على فهم الخلود فإذا " مـا نظـر المـرء بعمـق فـي نتائج هذه الطبيعة أي طبيعة المعرفة فإن الاعتقاد بـالخلود يكـون أمـر معقـولا تماما " ([3])

فكل مواقف وأقوال هذا الحكيم ارتبطت بهذا المفهوم فهو لم يكتفي بأن يقول بأن الموت هو ضد الحياة أو هو نهاية للجسد وبقاء للـروح أو أنـه لا يعتـبر مصدرا للخوف والتشاؤم ... وإنما جعل الموت كقاعدة أساسية ينطلق منها في كـل موضـوع وربطـة بالمعرفـة والحقيقـة والقـانون والمدينـة وبـالخلود ،أي بالفلسفة ككل فأصبحت هذه الأخيرة عبارة عن تفكير في الموت وتـدرب عليـه وممارسة ، هو ما سنعرض له في العناصر اللاحقـة ، محـاولين بدايـة أن نوضـح كيف فهم «سقراط» فكـرة أن المـوت هـو الطريـق إلـى الحيـاة الأبديـة ، أو

---

[1] - سورة الأعراف ، الآية 19-20.

[2] - la mort de sokret ,P.172

[3] - جيمس . ب كارس ، الموت والوجود ، دراسة لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ، مذكور سابقا،ص 24 .

بالأحرى كيف برهن للجميع أنه لا يخشى الموت وإنما ينتظره بفارغ الصبر أملا في حياة أفضل مع الآلهة والحكماء والقضاة العادلين ؟

وللبرهنة عن الخلود قدم «سقراط» مجموعة من البراهين يمكن الإشارة إليها فيما يلي

: أ- برهان أ- التضاد :

بداية لقد قوبل هذا البرهان بنقد فيما بعد ، ليس من طرف محاوري «سقراط»، وإنما من طرف الباحثين والنقاد ، فأعتبر برهانا ضعيفا ، وتجسد هذا النقد خاصة في حقيقة هذا التضاد وطبيعته ، وسنتعرض لهذا النقد بعد تقديم مضمون هذا البرهان وكيف فسره «سقراط» .

فهو ينطلق في بداية الأمر من الأسطورة الاورفية ([1]) التي تشير إلى أن الأرواح كانت موجودة قبل أن تتصل بالبدن ، وهي أيضا موجودة بعد الموت ، ثم يعرض بعد ذلك لفكرة التضاد ، حيث يرى بأن كل شيء يولد من ضده ، " أليس حقا عندما يصير الشيء أصغر أن تكون هناك حالة سابقة كان فيها أكبر ، تولد فيما بعد حالة يكون فيها أصغر " ([2]) ويقدم «سقراط» مجموعة من الأضداد كالجميل القبيح والخير والشر والضعيف والقوي ... والتأكيد من خلال ذلك على أن لكل شيء ضده وأن الأضداد تتولد من أضدادها ، وكذلك الأمر بالنسبة للحياة والموت إذ يعتبرهما ضدين يتولد أحدهما من الآخر . فالحياة هي ضد للموت وأن " الأحياء ينشئون من الموتى كما ينشأ الموتى من الأحياء " ([3])

وبالتالي يصل إلى نفس النقطة التي انطلق منها وهي أن " نفوس الموتى موجودة في مكان ما وأنها تولد ثانية من هذا المكان " ([4]) فهي لا تفنى ولا تموت ، أما الذي يموت هو الجسد وباقي أجزاء العالم الحي الخاضع للتغير والزمانية ، والقابل للفساد في حين أن الروح باقية وخالدة وغير متغيرة .

ومنه نستنتج أن الحياة التي يعيشها الإنسان هي ضد للموت وأن العالم قائم على فكرة الأضداد فكل شيء وإلا وله ضد له ، إلا أن هذه الفكرة تحتمل النقد كما سبق و ذكرنا في البداية ، لأن الموت الذي يتحدث عنه «سقراط» ليس نهاية تامة وإنما هو استمرار لحياة أخرى ،وبالتالي لا يمكن أن تكون الحياة التي يعيشها الإنسان ضد الموت كما يصوره «سقراط» ، وذلك لاعتبارين: أولهما هو أن الموت لو كان نهاية للوجود الإنساني فإنه بذلك يصلح أن يكون ضدا للحياة ، أما إذا اعتبرناه امتداد للوجود الإنسان في حياة أخرى، فإن البرهان يسقط "ذلك لأن التضاد الذي يناقشه «سقراط» ليس بين الحياة والموت، وانما بين الحيات على الأرض والحياة في مكان آخر " ([5])

---

[1] - يقول «سقراط» أنه سمع أشياء جميلة وحقيقة ، أي جديرة بالتصديق ، ومن رجال ونساء وعلماء بالشؤون المقدسة ويقول معهم الشاعر الكبير بنداووس وغيره من الشعراء الإلهيين : أن نفس الإنسان خالدة وهي تختفي أحيانا ، وهذا هو الموت ، وتظهر أحيانا أخرى وهذا هو الميلاد ، ولكنها لا تفنى أبدا على أي حال .

[2] - الأصول الأفلاطونية – فيدون وكتاب التفاحة المنسوب ا إلى سقراط ،ص 45 .

[3] - المرجع السابق ، ص 47 .

[4] - ، المرجع السابق ، ص 47

[5] - جيمس ، ب اكارس ، الموت والوجود ، مرجع مذكور سابقا، ص 25 .

أما الاعتبار الثاني هـو أن الاعتقـاد بهـذا التضـاد ينفـي فكـرة الخلـود ، لأن الحياة هي الوجود الإنساني وضدها هو انتهاء هذا الوجود أو الاوجـود – إن صـح التعبير - الذي يكون من خلال الموت ، لأن «سقراط» يعتبر المـوت وجـودا من نوع آخر وفق حياة جديدة، وبذلك لا يصلح أن يكون ضدا للحياة .

لكن «سقراط» حينها لم يلق أي صعوبة مع محـاوريه ولـم يـوجه لـه نقـد ولم يطالب بتفسير أكثر ، لذلك نجده ينتقل مباشرة إلى برهان جديد هو برهان التذكر .

ب- **برهان التذكر :**

نجد هذه الفكرة مجسدة بشـكل رائـع فـي محـاورة " مينـون – meno " عندما حاول «سقراط» البرهنة على أن العبد الصغير يمكنه القيام بعمليـات رياضية من خلال التذكر ، فهو يتصور أن روح هذا العبد حصـلت علـى المعرفـة قبل ميلادها ، وهي موجودة قبـل كـل ميلاد " إن نفـس الإنسـان خالـدة ، وهـي تصل في وقت ما إلى نهاية ، وهذا هو ما يسمى بالموت ، ثم تعود إلـى الظهـور من جديد في وقت آخر ولكنها لا تفنى أبدا ... وهكذا وباعتبار أن النفـس خالـدة وأنها تولد مرات عديدة وأنها قد رأت كل شيء سواء هنا أو فـي هـاديس ، فـإنه ليس هناك أمر لم تتعلمه ، وعلى هذا فليـس مـدعاة للدهشـة سـواء بخصـوص الفضيلة أو بخصوص أمر آخر أن يكون في امكانها أن تتذكر نفسها " ([1])

يمكن أن نقول من خلال هذا النص بأن «سقراط» برهن علـى أن الـروح خالدة ، وأن كل ما تعرفه قد حصل من خلال ولاداتهـا المتكـررة ونحـن لا نملـك هذه المعرفة على نحو واعي ، وإنما نتذكرها لأننا " حسـب «سـقراط» " قـد فقدناها لحظة الميلاد ، وهو ما وصل إليه سقراط في حواره مع مينون "([2]).

حيث يقول في نهاية هذا الحوار وبعد طرحه لمجموعة من الأسـئلة علـى العبد الصغير يقول " فإذا كانت حقيقة الموجودات توجد دائما فـي نفوسـنا ، فلا بد أن تكون النفس خالدة ، وهكذا يجب أن يكون جسورا ذلـك الـذي يحـدث ألا يكون عالما ، ولكنه يحاول أن يبحث وأن يتذكر " ([3])

ج- برهان البساطة والتركيب :

يفصل «سقراط» في هذا البرهان بين الجواهر المركبة والبسيطة ، فهـو يرى أن الشيء المركب يقبل الانقسام والإضافة وخاضـع للتغييـر فـي حيـن أن الشيء البسيط هو غير قابل للانقسـام والتغيـر ويتكـون مـن عنصـر واحـد فهـو يقول موجها حديثه لسيبيس " أليس من الملائم إذن أن ما كان مركبا ومـا هـو مركب بطبيعته ، يعرض له الانحلال الذي يلاءم تركيبه حقا ؟ ولكن إذا حـدث أن هناك شيئا ما غير مركب ، أليس أكثر ملائمة لهذا فقط منـه لأي شـيء آخـر أن

---

[1] - أفلاطون في الفضيلة ، محاورة مينون ، ترجمة عزت قرني ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة بدون طبعة 2001 ص 105-106 .

[2] - الحوار موجود في المحاورة السابقة من ص 107الىص 123 .

[3] - المحاورة نفسها، ص 122 .

يتفادى هذه الحالة " [1]، ثم يواصل «سقراط» حديثه بعد أن أكد على طبيعة الأشياء المركبة والبسيطة وهو يرى أن " الجمال والرجال والخيول والملابس " مثلا لا يمكن لمسها أو رؤيتها بالحواس وإنما نذكرها بالفكر " إن مثل هذه الأشياء تكون بالأحرى غير مرئية ومخفية عن الرؤية " [2] ، ليصل من خلال ذلك كله إلى أنه يوجد نوعان من الحقائق بعضها منظور والبعض الآخر غير منظور " أحدها الجسد والآخر النفس " أما النفس فهي الجزء غير المرئي والمخفي والقابل للانقسام وبالتالي هي خالدة ، كما أنها لا تتخلص من الجسد بشكل مطلق فتبقى تحتفظ بجزء من المرئي " وتمتنع من أن تتحد إتحادا كاملا مع الحقيقة المطلقة غير المتغيرة ويشير «سقراط» إلى أن هذه هي الأرواح التي نراها بشكل أشباح وأطياف خاصة بالقرب من القبور والمدافن " [3] .

وبعد ذلك يحاول «سقراط» أن يقدم وجهة نظر جديدة يحاول من خلالها أن يثبت ألهوية النفس وخلودها ، باعتبار أنها هي التي تقدم الأوامر للجسد وهذا الأخير عليه الطاعة والانقياد " فحينما تجتمع النفس والجسد ، الطبيعة تفرض على هذا الأخير العبودية والطاعة وعلى الأولى الأمر والسيادة " [4] نومنه فإن النفس هذا الجزء غير المنظور خالدة وغير قابلة للفناء والتبدد .

كما يتناول «سقراط» إلى جانب ذلك كله فكره التناسخ من خلال تبيانه أن روح الأشخاص الذين استجابوا لمطالب الجسد والشهوات أرواحهم تنسخ في الحيوانات كالحمير - كما يقول- ، أما الروح التي مارست التناسق وابتعدت عن مطالب الجسد فإنها تصعد إلى ما هو إلهي .

بالرغم من هذه البراهين القوية وما تحمله من مضامين فلسفية ذات طابع تأملي فريد وخاص ، والتي كان لها تأثير كبير على الفلسفات اللاحقة وعلى التفكير الإنساني إلى يومنا هذا إلا أن محاوري «سقراط» لم يقتنعوا بفكرة الخلود خاصة سيمياس وسيبيس .وقد طرحا من جهتهما اعتراضهما [5] من جديد وهو ما خلف من جهته استمرار للحوار حول مصير النفوس بعد الموت .

إلا أنه يجب الإشارة إلى أن «سقراط» بالرغم من جميع البراهين التي يعرضها في " فيدون " فهو لم يكن متأكدا من فكرة الخلود، ففي محاورة " الدفاع " يظهر «سقراط» غير متأكد من ذلك وإذا كان يرى بأن حالة الإنسان بعد الموت أسعد وأفضل من الحياة التي يعيشها قبل الموت وأن الخلود موجود فإن ذلك لا يعني أنه متأكد أو على يقين حيث يقول " وليس الناس هناك أسعد فقط ممن هم هنا بل أنهم كذلك منذ ذلك الوقت فصاعدا خالدون أبد الدهر على الأقل إن كان ما يقال حول هذا صحيحا " [6] ويضيف أيضا بأن هاته المعرفة بالرغم أننا نتوقعها ونأمل فيها إلا أن حقيقتها ويقينها يملكه فقط

---

[1] - الأصوال الأفلاطونية ، فيدون ، مذكور سابقا ،ص 59 .
[2] - المرجع السابق ،ص 60.
[3] - جيمس .ب . كارس. الموت والوجود، مذكور سابقا ص 27 .
[4] - الأصول الأفلاطونية ، فيدون ، مذكور سابقا ، ص 62 .
[5] - الإعتراض موجود محاورة فيدون .
[6] - أفلاطون ، محاكمة سقراط، مذكور سابقا ، ص 136 .

الإله ، فقد كان يقول للاثينيين عندما حكموا عليه بالإعدام وعندما صوت عليه الأغلبية بأنه مذنب ويستحق العقاب كان يقول :" ولكن هكذا حانت الساعة للرحيل أنا لأموت وأنتم لتعيشوا ، من منا يذهب إلى المصير الأفضل ؟ الأمر يبدو غير واضح أمام الجميع باستثناء الإله .

فسقراط لم يتخذ حتى النهاية موقفا حاسما حول الخلود وهو ما يخلق إشكالية التوفيق بين مواقف «سقراط» في محاورة فيدون التي يبرهن فيها على الخلود ، وبين محاورة الدفاع التي تعبر عن وجهة النظر اللا أدرية .

وقد أسهم الكثير من الباحثين والفلاسفة في كتابهم محاولين تقديم تفسير لذلك ، فاعتبروا أن «سقراط» بالرغم من أنه لم يكن متأكدا من خلود الروح وأنه سيكون مع الحكماء والعظماء ويجتمع معهم - كما يظهر في محاورة الدفاع – إلا أنه كان يقدم الغراء لأصدقائه :" فقد كانت رغبته واضحة في أن يترك صورة طيبة عن نفسه في قلوب رفقائه" ([1]) .

ويمكن أن نفهم ذلك جيدا عندما نتذكر بأن «سقراط» كان دائما يؤكد بأنه لا يعرف شيئا وهو بذلك لا يستطيع أن يؤكد على فكرة بشكل مطلق أو يدعي معرفته بها ، وإنما كان يكتفي بأن يضعنا أمام احتمالين من شأنهما أن يعلمانا عدم الخوف من الموت والأمل في حياة أفضل ، أحد هذين الاحتمالين هو أن الموت " إما أن يكون عدم الإحساس بأي شيء كما هو الحال في النوم عندما ينام المرء ولا يرى أي شيء ولا حتى في الحلم ، فلكم سيكون الموت مدهشا" ([2]) وإما أن يكون " رحلة خارجية من هذا المكان إلى مكان آخر يكون فيه كل الموتى ، إذا كان صحيحا ما يقال : فأي خير أكبر من هذا " ([3]) .

وبالتالي فإن فكرة الخلود غير واضحة وغير يقينية عند «سقراط» ويعود ذلك ربما إلى أن أفلاطون حاول أن يربط فكرة الخلود ونظريته في المثل بموقف «سقراط» من الموت فأدرج تلك البراهين التي يطرحها «سقراط» في محاورة فيدون" ويبدوا أن هذا الغموض والنزعة اللاأدرية تعود إلى أن أفلاطون قام في المحاورة الأخيرة وبصورة تعسفية بربط الصور الواقعية لساعات «سقراط» الأخيرة بنظريته الخاصة في الخلود" ([4]) .

وكما أن «سقراط» الذي يمثل الفلسفة أعطى مفهومها للخلود وبرهن على بقاء الروح بعد الموت ، كذلك التصوف وليس الإسلامي فقط بل العالمي - وإن كان «سقراط» من بين المتصوفة- كان له رأي هو الآخر .

فلقد ارتبط مفهوم الخلود عند المتصوفة بتلك التجربة الروحية التي يشعر من خلالها بفنائه في الذات الإلهة، وهناك عبارات كثيرة في التصوف العالمي عامة والإسلامي خاصة تشير إلى هذه الفكرة فمثلا : " الأوبنشادا "

---

[1] - حاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ،مذكور سابقا،ص 50 .

[2] - أفلاطون ، محاكمة سقراط، مذكور سابقا، ص 135 .

[3] - المرجع السابق ، ص 135 .

[4] - جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، مرجع سابق ، ص 49 .

تذهب إلى أن من يصل إلى الوعي البرهمي فقد بلغ الخلود ، ولا شك أن التجربة التي تؤيد هذه العبارة هي الإحساس بالخلود" ([1]).

ولا تخلوا كتابات الصوفية من التعبير عن هذا الإحساس الذي يشعرون به ، ولكن دائما كل تعبيراتهم قابلة لتأويلات مختلفة فماذا يقصدون به ؟

هل هو بقاء النفس بعد الموت ؟ وهل معنى الخلود في الخطاب الصوفي هو نفسه الموجود في الفلسفة ؟

" يؤكد المتصوفة بإجماع أن تجربتهم تجاوز الزمان ومن الطبيعي أن نظن أن الخلود الذي يشعرون هم به انفيهم أنهم وصلوا اليه هو الخلود في لحظة لا زمانية "([2])،وذلك لان المتصوف الذي بلغ هذه المرحلة من الإتحاد أو الفناء يتجاوز حدود الزمان إلى ما يسمى " الآن الأزلية " فيتكون بذلك الإحساس بالخلود الذي يحمل معنى الوصول إلى الآن الأزلية أين يكون المتصوف في لحظة تجربته الروحية ، وفي مقابل هذه الفكرة التي تعطينا إيمانا بالخلود ولو على شكل إحساس هناك فكرة أخرى تشير الى أن " التجربة الصوفية تزودنا بدليل ضد أي بقاء زمني ، وذلك لأن أحد الأطوار الهامة في مثل هذه التجربة - كما سبق أن رأينا- يعتمد على الشعور بفناء الفردية وذوبانها في اللا متناهي "([3])، فهذا الفناء والذوبان هو توقف الذات عن الوجود مما يعني عدم البقاء .

إلا أن كلتا الفكرتين السابقتين غير حاسمتين في التصوف ، سواءا فكرة الإحساس لأن هذا الأخير غير كاف كما أن الفناء في الذات الآلهة ليس كف نهائي ومطلق للأنا عن وجودها ، وانتهاء التجربة الصوفية يبقى ذلك الذوبان أو الفناء ، ولا شك أن هذه التجربة الروحية التي تميز بها المتصوفة تجعلهم فاقدين للشعور بوجود ذاتهم في العالم المرئي، ويرتقون إلى مرتبة يحسون من خلالها " أنهم قد ظلوا وأنهم في غير المكان الصحيح وأنهم غرباء في أرض لا بيت لهم فيها وليس لديهم حتى أقل معرفة بطريق العودة والرجوع ،فهم ينتمون إلى مكان آخر ولهم بيت قد انفصلوا عنه وغادروه وأنهم ينتمون لمالك آخر ولكنهم قد نسو من هو" ([4]).

إلا أن هذه الرحلة أو السفر أو حتى الفناء الذي عرف عند الصوفية وإن كان يعبر عن لحظات ترتقي فيها الذات إلى الالتقاء بالله لتستشعر الخلود أو تحس به ، فإنها تختلف عن فكرة الخلود الموجودة في الفلسفة .

فسقراط مثلا كانت رغبته في الخلود ليست مجرد رحلة يقوم بها للحظات وإنما كان يرغب في البقاء على نفس الحال فهو " يريد أن يواصل حواره مع أصدقائه أو مع من يشابههم فكرا وهو حوار كان يمارسه فعلا ، ويشتغل به ، فقد كان يشتاق إلى مواصلته لهذا العالم المألوف وبالتالي لنفسه الحاضرة الحالية " ([5]) .

---

[1] - ولترستيس، التصوف والفلسفة ، مذكور سابقا، ص 374 .

[2] - المرجع السابق ص

[3] - المرجع السابق ص 375 .

[4] - جيمس . ب . كارس ، الموت والوجود، مذكور سابقا،ص 88.

[5] - المرجع السابق ، ص 88 .

وبذلك يمكن أن نميز الاختلاف بين الرؤية الفلسفية والصوفية عامة، وبين «سقراط» و«الحلاج» خاصة .

فالتصوف لا يرغب أبدا في مواصلة هذه الحياة التي هي بالنسبة له مصدر الغربة والعذاب والشوق الإلهي ، وهو ما يجسد نفورهم من الوجود الأرضي واشتياقهم إلى الاختلاف الجذري عن المألوف ،" فالتحول الذي ينشده الصوفي ليس هو اتخاذ طريق في الوجود يقع وراء الحاضر في زمن لم يحن بعد، بل هو اتخاذ طريق في الوجود هو الطريق الذي كان وما زال فيه" ([1]) .

وبذلك يكون وجود الإنسان في حياته الأرضية لا يحمل أي معنى بالنسبة للمتصوف فبحث هذا الأخير من خلال تجربته الروحية عن الوجود الحقيقي ليتجاوز بذلك التناقص مع الذات باحثا عن الفناء .

وإذا كان الصراع في الفلسفة يدور حول علاقة الروح بالجسد وأيهما خالد ، فإن الصراع في التصوف كان في الحقيقة بين الروح وذاتها ، ويظهر ذلك من خلال إنهاك الصوفي لنفسه بالعبادات والمجاهدات وهو " الجهد الجهيد للتغلب على التناقضات الوجودية للذات من حيث أنها تجعل المرء ما هو على الحقيقة" ([2]) .

فالكثير من الدراسات تؤكد عدم اهتمام التصوف بالخلود "فهو لم يلق أي ضوء واضح على مشكلة ما إذا كانت النفس تدوم بعد الموت كروح بلا بدن "([3]).

إلا أن فهمنا للخلود في الخطاب الصوفي يحمل مضامين جديدة ومغايرة تماما للرؤية الفلسفية لان " ما ينشده الصوفي ليس إعادة بعث الجنة أو عودة الحياة إلى الروح في البدن الذي مات ، فلن يكون هذا بالنسبة له إلا محاولة للتغلب على الحزن عن طريق جعل الفرقة والانفصال دائمة "([4])،لأن عودة الروح إلى البدن هي في الحقيقة استمرار لذلك الانفصال فالموت هو انفصال الروح عن ذاتها باعتبار أنها ستفترق عن موطنها الإلهي ، هذا الأخير الذي يوجد في أعماق أرواحنا لذلك ما " ينشده الصوفي هو الموت الكامل لهذا الذي فارق وانفصل ، فعلى المرء أن يترك الروح الظالة المنعزلة للموت وأن يعود إلى الحياة وليس هناك علاج آخر للحزن "([5]).

وهذا الموقف الصوفي يقودنا إلى جهل ذواتنا و إلى موت إرادتنا حيث تغيب كل معرفة الإنسان بذاته فتفرغ روحه من كل شيء تماما كما كانت قبل أن توجد وتسافر في رحلة أو في تجربة لا تدرك فيها أي شيء " فكيف نفسر هذه الأحوال إن لم يكن تفسيرها الوحيد هو أن الروحي أبقى وأخلد وأحرى بالدفاع من أي وجود " ([6]).

---

[1] - المرجع السابق ، ص 89 .

[2] - المرجع السابق ، ص 89 .

[3] - ولتر ستيس ، التصوف والفلسفة، مذكور سابقا،ص 375.

[4] - جيمس . ب . كارس ، الموت والوجود، مذكور سابقا،ص 93.

[5] - المرجع السابق ، ص 93 .

[6] - مجدي محمد ابراهيم ، مشكلة الموت عند الصوفية ، مذكور سابقا ، ص 224 .

وهو ما يعبر عن موقف الحزن الذي تقر به الصوفية عندما تـدرك حريتهـا الوجودية عن الله فهم " لا يحاولون علاج هـذا الحـزن بـل أن يستسـلموا وأن يقروا بفقرهم الروحي الكامل ليواصلوا البقاء في تلك الليلة المظلمة " ([1]).

لأن المتصوف لا يأمل في استعادة روحه التي انتهـت فـي هـذه التجربـة، وإنما يأمل في حلول الله في مكانها " والمقصود هنا أن الصوفي لا يرى اللـه على مبعده بل يمر بتجربة يكون فيها الله فـاعلا خلال روحـه وخلال صـميمها ومركزها مما يجعله أقرب إلينا أنفسنا ذاتها " ([2]).

ولقد اعتبر المتصوفة أن هذه المرحلة التي تقوم بها الروح هي بحث عن الحقيقة ومحاولة تحقيق الوحدة مع الذات الإلهيـة أو هـي سـفر إلـى المنبـع الكلي لتشكل بذلك " رحلة عبور من حاضر ميت إلى المنبع الخالد للحياة " ([3]) .

ولعل هذه الفكرة الأخيرة هي التي تعطي لمفهوم الخلـود عنـد المتصـوفة طابعا خاصا يختلف عن الخلود الذي عرفناه في الفلسـفة ، والـذي يتكلـم عـن بقاء الروح بعـد المـوت أو بعـد فنـاء الجسـد " فـالخلود كمـا قـرره الفلاسـفة للروح لا للجسد ، ومن ثمة فقد وضعوا فـي اعتبـارهم إنكـار حشـر الأجسـاد ، ولهم في ذلك أدلتهم العقلية التي يستندون إليها " وأهمها وأظهرها فيما نرى فكرة التغير والتبديل علـى مجـرى الزمـان ، الـتي تلاحـق المـادة الموجـودة للكائنات "([4]).

فالمتصوفة لا يبحثون عن هذا النوع من البقاء وإنما يطمعون إلـى غايـة أسمى من ذلك وهي إمكانية أن التوحد ومع هذا الكيان الخالد " وليست رغبة الصوفي أن يصبح كائنا يمتلك تلقائية لا تنفذ بل أن يكون هـذا المبـدأ الخالـد للذات "([5]).

لكن هل هناك موت لهذا الصوفي أم هناك خلود ؟ أم هناك موت وخلود؟

الفلسفة بشكل عام تحدثت عن الخلود في مواضيع كثيرة ، و «سقراط» بشكل خاص كان له موقف من الخلود وقدم مجموعة مـن الحجـج والـبراهين لإثبات ذلك ، كما أنه كان يأمل في الحياة التي ستكون له بعد الموت ، أي أنه حالة انتقال من مرحلة مؤقتة إلى مرحلة أبدية .

في حين أن التصوف كان يعبر عن الخلود في الحياة ، أو بالأحرى عندما يكون المريد في غمار العشق الإلهي فانيا في الذات الإلهية ، باحثا عن الوحدة معها لأنه في " الحب ليس هناك موت لأن ما هو أصل ومنبع لا بداية لـه ولا نهاية " ([6]) ،فكان الصوفي يعمـل ذلـك يبـاحث عـن الحيـاة الحقيقيـة والوجـود الحق " بالمجاهدة العنيفة تارة وبالفناء في التوحيد تارة أخرى ، فإن لم يتسنى له ذلك فالموت هو أول عتبـات الخلاص ، ومـن هنـا كـانت رغبـة الصـوفي فـي

---

[1] - جيمس .ب. كارس ، مذكور سابقا ص 96 .
[2] - المرجع السابق ، ص 98 .
[3] - المرجع السابق ، ص 102 .
[4] - مجدي محمد ابراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ،، مذكور سابقا، ص 256 .
[5] - جيمس ، ب. كارس ، مذكور سابقا ، ص 103 .
[6] - المرجع السابق،ص 103

الموت رغبة لا تعادلها رغبات الحياة لأنها الرغبة التي تعبر عن الوجود الحق من وراء الحياة "[1]، فالذات الإنسانية ميتة لا محالة وهي معرضة لهذه الحادثة البيولوجية الطبيعية، لكن هذا لا يغني انتهاءها وإنما التجربة التي تعيشها الذات وترتقي من خلالها إلى المطلق هي أن المرء في الحقيقة يحيا عن طريق الموت " [2]،لأن هذه التجربة هي انتقال من مرحلة إنسانية إلى مرحلة أكثر جوهرية وهو ما يؤكد على أن الصوفية يعتبرون الموت انفصال زمني ، لأن وجود الإنسان في التاريخ هو في الحقيقة موت له ، ولكي يحيا يجب أن يتخلى عن هذه الزمنية " فليست الجيفة التي يأسى عليها الصوفي ليس إلا شخصا نية متعلقة بالزمن فتمتد للخلق في الذاكرة الحية وإلى الأمام من خلال التوقع والأمل " [3] .

وقد تقودنا هذه الفكرة الأخيرة إلى مفهوم " الفناء في التوحيد ومعنى هذا كما عرفه الجنيد : والعلم في ذلك أنه رجع آخر العبد إلى أوله ، أن يكون كما كان إذ كان قبل أن يكون " [4] .

فالنفس في تصور المتصوفة كانت موجودة قبل أن توجد على صورتها المادية متصلة بالجسد وأنها يجب أن تعود إلى صورتها الأولى كما كانت ، وهي الصورة الخالدة والحقيقية " تعني هذه الرجعة عند «الحلاج» " توحيد الواحد " وتثير الرغبة في الموت ورغبة «الحلاج» في الموت التي أشار إليها " السهروردي " حاكيا قوله : أن «الحلاج» قد أشار إلى رجعة النفس حينما صاح :

أقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي " [5] .

ولا جدال في المتصوفة باختلافهم اتفقوا على أن الخلود يتجسد في الفناء في الذات الإلهية ومن ثم البقاء فيها لأنها الذات المطلقة والحقيقية وأساس الخلود.

وسنحاول فيما يلي أن نكون أكثر تخصيصا محاولين أن نفهم معنى الخلود عند المتصوفة المسلمين بما فيهم «الحلاج»، وذلك بالإجابة على بعض الأسئلة التي من شأنها أن توجهنا إلى مفهوم الخلود عندهم ، فهل هو خلود الروح فقط كما يقول أغلب الفلاسفة ؟ أم خلود للروح والجسد معا ؟

" وتجدر الإشارة هنا إلى أن موقف الصوفية يكاد يكون أصرح المواقف وأصدقها تمثلا لهده الحقيقة الوجودية الكبرى التي أقلقت الإنسان و جعلته يضع أمامه بحث مشكلة الموت مرة بالتأويل وأخرى بالتصديق و التسليم "[6]،وتجسد هذا التسليم والتصديق في الإيمان المطلق بالشريعة وما جاء فيها من أحكام وتصريحات وهو ما يؤكده الكلابذني حيث يقول : " اجمعوا على أن

---

[1] - مجدي محمد ابراهيم ، مشكلة الموت عند الصوفية،ص،227.
[2] - المرجع السابق ، ص 203.
[3] - المرجع السابق ، ص 206
[4] - ،- المرجع السابق ص 225 .
[5] - المرجع السابق ص 225 .
[6] - المرجع السابق ، ص 252 .

الإقرار بجملة ما ذكر الله تعالى في كتابه وجاءت به الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم في ...تأييد الجنة والنار .وأنهما مخلوقتان وأنهما باقيتان أبد الآبدين لا تفنيان ولا تبيدان وكذلك أهلوها باقون فيها خالدون مخلدون منعمون ومغذبون لا ينفذ نعيمهم ولا ينقطع عذابهم " ([1])

ولا شك أن هذا التسليم والتصديق السابقين هما اللذين جعل المتصوفة يتميزون برؤيتهم الخاصة للخلود التي تختلف عن جميع الخطابات الأخرى والمذاهب الدينية الاخرى و الفلسفية، باعتبار أن منهجها ذوقي وجداني كشقي اعتمد على الإيمان المطلق بالذات الإلهية والرغبة في الفناء فيها ، فلم يخالفوا في ذلك صريح القرآن وقبلوا ما ورد فيه دون نقاش أو محاولة النظر كما فعل بعض الفلاسفة المتكلمين .

كما لا يختلف إثنان في طبيعة تعامل الصوفية مع الجسد واحتقارهم له لأنه في تصورهم مصدر كل إثم ولذة فهو " مادة ترابية لا فائدة منها جاز للصوفية إهماله وقتله ورميه بالنقصية والمذمة والمعابة واحتوائه على صنوف الشهوات"([2]) ،وهو ما يؤكد موقفهم من الجسد وتصورهم للروح وطبيعة هذا الخلود فيما إذا كان لهذا الجزء المحقر من الإنسان، أم أنه سيكون للروح .

وحتى لا نقع في تناقض مع المنهج الصوفي فإن المنطق يؤكد على أن الخلود يكون للروح وليس للجسد لأنه لو كان العكس لأعطى المتصوف حقا للجسد فكانت " حياته كلها خدمة للروح حتى لا يكاد في بعض الأحيان بل أكثرها أن يقضي تماما على الجسد لتنفرد لديه " النفحة الإلهية " للعلو والارتقاء وتصعد روحه إلى عالم الملكوت غير عابئ بمطالب الجسد وهو لا يزال على قيد الحياة مكبلا بأغلال الوجود لم تفارق روحه بعد ، ولم يخطر بباله أن للجسد مطالب يراعيها في حياته الدنيا التي يعيشها خدمة للروح وتحقيقا للاتصال بالله " ([3])

فكأن التصوف الإسلامي - خاصة- يبحث عن خلود الروح من خلال اتصالها بالذات الإلهية الخالدة ليس في الآخرة فقط وإنما في الحياة الدنيا لأن " منبع الصوفية يقرر الخلود الروحي بل لا يقف عند هذا الأمر ، ولكنه يتجاوزه فيطلب الصوفي لقاء الله والإتحاد الكامل به والفناء فيه في الدنيا والآخرة ، فيكون المعاد للروح لا خشية عقاب ولا طمعا في ثواب وإنما معاد تتحقق فيه إرادة الصوفي بإرادة الله فإذا هما متحدان " ([4])

وهذه الفكرة الأخيرة تذكرنا بموقف الحلاج الذي أهلك جسده في العبادات والمجاهدات واحتقره وسعا إلى معشوقه للفناء فيه والإتحاد به ،وإن كان «الحلاج» وغيره من المتصوفة لم يصرحوا بفكرة أن الروح هي الخالدة ،فإن ذلك يظهر في مواقفهم ومنهجهم الروحي " وإن كانت ظواهر الآيات القرآنية

---

[1] - الكلاباذي أبو بكر محمد ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق وتقديم ومراجعة وتعليق محمد أمين النوادري ، مكتبة الكليات الأزهية القاهرة ، ط 2 ، 1970 ص 71 .

[2] - مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام، مذكور سابقا، 259 .

[3] - المرجع السابق ، ص 257 .

[4] - المرجع السابق ، ص 259 .

تشير إلى المعاد الجسماني فبواطنها والصوفية أهل الباطن تنطق بالبعث الروحاني ([1]).

إن فكرة الخلود سواء خلود الروح أو الجسد أو كلاهما، هي إشكالية كان لها صدى كبير على الفكر الإنساني وقد تبدوا في بعض جوانبها تابعة لإشكالية الموت ، لكن في كل الأحوال تبقى بدون إجابة نهائية وجازمة وتبقى كذلك عزاء الفيلسوف والمتصوف في الأمل في حياة أفضل أو حياة أخرى كيفما كانت ،وإن كنا قد توسعنا في تقديم فكرة الخلود عند «سقراط» فذلك يعود إلى أن هذا الحكيم تكلم كثيرا عن الخلود وحاول البرهنة على بقاء الروح - كما سبق وأن أشرنا- في حين أن «الحلاج» اكتفى ببعض الإشارات التي اجتهدنا في تبيانها .

أثر كل من «سقراط» و«الحلاج» على الفلسفة والتصوف

لقد أثر كل من «سقراط» و «الحلاج» على الفكر الإنساني والتصوف أيما تأثير ، وهذا التأثير لم يظهر فقط في الحقبة التي عاشها كل منهما وإنما امتد ذلك التأثير إلى يومنا هذا وكان حاضرا في جميع الخطابات الفكرية ، وقد يعتقد البعض من المفكرين أن وجودهما كان سلبيا ورجعيا على الحياة الفكرية ، في حين يعتقد البعض الآخر أنهما من أشهر الشخصيات العالمية الفلسفية والصوفية والثائرة في الوقت نفسه، ولعل ذلك يبدو بوضوح إذ نحن وقفنا عند أهم المحطات الفكرية و الصوفية عندهما، وموقف المجتمع اليوناني من «سقراط» والمسلمين والمستشرقين من «الحلاج» ،

فسقراط أثر- كما أثر «الحلاج»- في الفكر اليوناني وفي الفكر الفلسفي اللاحق إلى يومنا هذا ، لأن هذا الحكيم وفق بيت القول والممارسة ، فأنتج لنا مشهدا مسرحيا كاملا من بدايته الى نهايته، فكل مناقشاته المحرجة وأقواله الحكيمة وأسلوب حياته الذي ختمه بشرب " الشوكران " كان له أثر على المجتمع اليوناني وعلى الفكر الفلسفي ، فاعتبر «سقراط» رائد فكر بكامله ، وقد أثر في كل ما تم التفكير فيه منذ ذلك الوقت في اليونان ... يبدو أنه يحب وذلك متعذر – قياس سلطاته التوري الذي يرجع إلى تساميه وإلى جاذبيته ولتأثيره إلى أمد بعيد الذي يعود إلى نزعته كان ملعونا أقل ما يظن ومدخل طيلة حياته وموقر منذ وفاته ..."([2]) .

---

[1] - المرجع السابق ، ص 261 .

[2] - فرانسيس ولوف ، « «سقراط» « مذكور سابقا ص 23 .

وقد استطاع «سقراط» أن يجيب أو بالأحرى أن يقدم لنا قناعة حول الموت تتجاوز إلى حد ما سابيقه وحتى من جاء بعده ، وتجمع بين المعطى العلمي والديني

" وهكذا يتضح أن محاولة إجراء مصالحة بين الإجابتين العلمية والدينية عن الموت هي محاولة ينبغي أن تتم ، وقد وصلت الفلسفة إلى دور الوسيط بين الإجابتين في تعاليم «سقراط» وفي موته "([1]).

بالإضافة إلى أن «سقراط» استطاع أن يحدث تغييرا في الفكر فقد قدم منهجا في الأخلاق وإن كان الشعراء والفلاسفة الذين كانوا قبله قد قدموا بعض الحكم والأقوال الأخلاقية إلا أنهم لم يشكلوا منهجا متناسقا و متكاملا في الأخلاق كما فعل «سقراط» ، فيعد مذهبه " بحق أول محاولة للأخلاق العقلية في تاريخ الفلسفة لأن الأحكام الأخلاقية عنده لا تتوالى كيفما اتفق ، بل هي تتابع دائم حسب نظام عقلي ثابت يأخذ بعضه برقاب بعض وتتلاقى حلقاته ثم تؤلف تسلسلا في المراتب يكشفه العقل وحده " ([2])

وفعلا أثر «سقراط» في الفكر اليوناني وفي جميع الخطابات المتوالية من بعده لأنه أعطى للأخلاق إتجاها جديدا وربطها بالعلم لا بالتقاليد ولا بالمعتقدات الأورفية وطقوسها ، فمن يتصف بالعلم يجب أن يتصف بالأخلاق "فهناك إذن وحدة بين العلم والفضيلة ، وهذا هو لب الأخلاق ال «سقراط» ية " ([3]) وذلك ليوجه تفكير الأثينيين نحو معرفة الذات من خلال الذات نفسها أو من خلالف العقل هذا الأخير الذي هو " أثمن شيء في الوجود ، وأن اللذة التي يجتنيها من المعرفة أشهى ثمرة يحلم بها إنسان وأطيبها على الإطلاق " ([4])

ولا شك أن هذا الربط بين الأخلاق والعقل هو ما دفع بالكثير من الفلاسفة والباحثين إلى تلقيبه " بأب الأخلاق " لأنه " حاول أن يطبق لأول مرة إمرة العقل الخاضع لقوانين الخاصة على علم الأخلاق ، الأخلاقية الملموسة التي تتحول إلى أخلاقية مجردة " ([5])

كما أن «سقراط» كان له تأثير كبير على طبيعة التفكير لأنه كان دائما يؤكد على أن البحث لا يجب أن يرتبط بالطبيعيات فلقد " اعتقد أن الرياضة والفيزياء والفلك ليست أشكالا ذات قيمة للمعرفة ولقد قال أنه لن يتعود أن يتجول خارج المدينة لأنه لا يوجدشيء يمكنه أن يتعلمه من الحقول والأشجار " ([6])

فبعدما كان إهتمام الفلاسفة قبل «سقراط» خاصا بالطبيعيات والبحث عن أصل الوجود تحول ميدان الفلسفة مع هذا الحكيم "وأصبح مضمونها عند

---

[1] - جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي مذكور سابقا ، ص 46 .

[2] - عبد الرحمن مرحبا ، مع الفلسفة اليونية ، منشورات عويدات ، بيروت ط. 3 سنة 1988 ، ص 103

[3] - نفس المرجع السابق ، ص 104

[4] - نفس المرجع السابق ، ص 109

[5] - فرانسي وولف ، « «سقراط» « ، مذكور سابقا

[6] - ولتر ستيس ، تريخ الفلسفة اليونيانية ، مذكور سابقا ، ص 99 .

«سقراط» شيئا جديدا تماما وهو ذو جانبين نظري وهو الفحص وعملي وهو البحث عن الفضيلة " [1]

إن هذه الفكرة الأخيرة شغلت حيزا كبيرا في تاريخ الفكر الفلسفي إذ هناك : " جانبان في التعاليم ال «سقراط» ية ، أولا هناك مذهب المعرفة وهو أن المعرفة كلها تتم من خلال المفاهيم وهذا هو الجانب العلمي في فلسفة «سقراط» ، ثانيتا، ثم هناك تعاليمه الأخلاقية أي الجانب الجوهري الهام عند «سقراط» دون شك نظرية المفاهيم العلمية وهذا هو ما يعطيه مكانة في تاريخ الفلسفة " [2]

وقد كان ل «سقراط» دور كبير في تحويل فكر اليونانيين خاصة ذلك الذي كان عند السفسطائيين الذين كانوا يجعلون من الإنسان مقياسا للأشياء كلها ومن ثمة أسسوا المعرفة على الحس وحده في حين أنن «سقراط» أقر أن المعرفة تكون على أساس " الإدراكات العقلية التي تتخذ موضوعها من مدركات عقلية هي المعاني الكلية التي يستخدمها العقل من الجزئيات وتكون قدرا مشتركا بين الناس جميعا " [3]

ويظهر تأثير «سقراط» على الفكر أيضا بشكل جلي في تلميذه أفلاطون هذا الأخير الذي تأثر بأستاذه وسار على نهجه في التفكير فأبدع مذهبا شاملا وعظيما فيي الفلسفة " فنظرية المفاهيم أحدثت ثورة في الفلسفة وعلى تطورها تأسست فلسفة أفلاطون بكاملها ومن خلال أفلاطون تأسست فلسفة أرسطو ، وفي الحقيقة كل المثالية التالية والتأثير المباشر لهذه النظرية على أية حال هو تدميرتعاليم السفطائيين " [4]

وبالإضافة إلى أفلاطون المتأثر الأول ل «سقراط» نجد أن هناك ثلاث من تلاميذه وهم أنتستينس والذي أسس المدرسة الكلبية ، وأريستيبويس الذي أسس المدرسة القورينائية ، وإقليتدس أسس المدرسة الميجارية ، فهؤلاء الفلاسفة تأثروا ب «سقراط» وبفكره وهم مؤسسي ما يسمى بالمدارس ال «سقراط» ية ، وقد كان لهم دور في تطوير فكرة الفضيلة عند «سقراط» هذا الأخير الذي اكتفى بطرح السؤال حول معنى الفضيلة وأنها تعني المعرفة ، وإن كان هذا التعريف الأخير يبدوا غير مقنع خاصة وأن «سقراط» هو صاحب فلسفة المفاهيم إلا أن ذلك يعبر على أن الفضيلة لا يمكن حصرها في مجموعة من المفاهيم يسير وفقها سلوك الإنسان ، فهي أوسع من أن تحصر في مجموعة من ا لمفاهيم وهي بذلك معرفة وكلما كان الإنسان عارفا بها كان فاضلا .

إلا أن المدارس ال «سقراط» ية قامت بتطوير مفهوم الفضيلة كل منها حسب مذهبها الخاص وموقفها " وكما أن الكلبيون وجدوا الفضيلة في

---

[1] - أفلاطون ، محاكمة « «سقراط» « ، مذكور سابقا ، ص 96 .
[2] - ولتر ستيس ، تريخ الفلسفة اليونيانية ، مذكور سابقا ، ص 103

[3] - محمد عبد الرحمن بيصار ، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، المكتبة العصرية ، بيروت ، طبعة 3 سنة 1980 ص 179 .
[4] - ولتر ستيس ، تريخ الفلسفة اليونيانية ، مذكور سابقا ، ص 103 .

الإستقلال والزهد ووجدها القورينائيون في اقتفاء اللذة فإن النيجاريين يجدونها في حياة التأمل الفلسفي أي في معرفة الوجود " [1]

وقد أثر ««الحلاج»» هو الآخر من جانبه على التصوف الإسلامي خاصة فقد " أثار إهتمام المسلمين جميعا في شتى الأماكن والعصور ، فقد حاول جمهور الصوفية المتأخرين تمجيده والإشادة بفكره لأنه كان في نظرهم الشهيد الذي لقي حتفه من أجل إباحته بسر " [2]

وفي مقابل هذا نجد الكثير من الكتابات التي تشير إلى أن التصوف الإسلامي قد عرف تحولا في المرحلى التي عاش فيها ««الحلاج»» " في نهاية القرن الثالث الهجري أي عصر أبى يزيد البيسطاوي والجنيد و««الحلاج»» ، إلى حركة دينية إنصبغت بصبغة وحدة الوجود [3] التي تغلغلت فيه وأصبحت من مقوماته في العصور التالية " [4]

لكن تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن نظرية وحدة الوجود كانت صريحة عند ابن عربي ، أما صوفية ««الحلاج»» فهي تعبر عن الفناء في الذات الإلهية وه\ه هي وحدة الشهود [5] و" فرق بين فيض العاطفة وشطحات الجذب وبين نظرية فلسفية في الإلهيات أي فرق بين ««الحلاج»» الذي صاح في حالة من أحوال جذبه لقوله أن الحق " وبين ابن عربي الذي يقول صراحة الأهوارية فيها والألبس ومعبرا لا عن وحدته هو بالذات الإلهية ولا عن فنائه بل عن وحدة الحق والخلق .[6]

وللحلاج أيضا نظرية في النور المحمدي وقد تم التفصيل فيها في الفصل الثاني . كان لها صدا كبيرا عند المسلمين والصوفية وقد تناولها المستشرقون والعرب وحاولوا النظر والتفصيل فيها وهي واضحة جدا في كتابة الطواسين ، ويعتبر ««الحلاج»» " أول من تجاوز في تاريخ التصوف في حبه لذات الله سبحانه إلى أول مخلوقاته وهو نور محمد " [7].

وكان لهذه النظرية أثر كبير على التصوف الإسلامي وتطورت فيما بعد على يد بعض الصوفية " فقد تجاوزت سمعته دائرة النخبة من المسلمين الروحانيين الضيقة ، كما دوت مأساة سجنه ومحاكمته في بغداد مثلما دوى استشهاده في سبيل الإسلام الصوفي في الآفاق " [8].

---

[1] - ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مذكور سابقا ، ص 112 .

[2] - محمد جلال شرف- دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب ، دار النهضة العربية بيروت سنة 1984 بدون طبعة ص 298.

[3] - وحدة الوجود تعبر عن التوحيد تعبيرا عقليا نظريا فجاءت مخالفة تماما للروح الإسلامية وعقيدة المسلمين ، فكانت فلسفية أكثر منها ذوقية ويقصد بها وحدة الحقيقة الإلهية كما هي عند محي الدين ابن عربي المتوفى سنة 638 ه ، وهي لا تعبر عن الإتصال بالذات الإلهية ولا عن فنائها في محبوبها بل هي تعبير فلسفي وجود عن وحدة الحق والخلق وقد قامت هاته النظرية على أساس فكرتين خارجتين عن العقيدة الإسلامية هما الإتحاد والحلول أي اتحاد الإنسان بالله أو بتعبير أصدق محاولة تأنيس الله أي إعطاء الله صفات البشر والمخلوقات كل ما يفيد التشبيه والتجسيم كما حدث في عقيدة اليهود والحلول الذي يعبر عن تأليه الإنسان وحلول اللاهوت في الناسوت كما حدث في المسيحية ، فالإتحاد هو تشبيه الخالق بالمخلوق والحلول هو تشبيه المخلوق بالخالق .

[4] - محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، المرجع السابق ، ص 297 .

[5] - وحدة الشهود ، تعبر تعبيرا صادقا عن التوحيد القائم على أساس الكتاب والسنة ، فهي حال وليست علما أو اعتقادا ولا تخضع لوصف أو تفسير وهي تقوم على أساس الإتصال بين العبد وربه وهو اتصال روحي ومعرفة قلبية اساسها المحبة المتبادلة بينهما ، وهذا الإتصال الذوقي الصوفي يؤكد فكرة الثنائية بين الخلق والمخلوق بين الله والإنسان أي أنه ليس هناك على الإطلاق شبه بين الله وما سوى الله ، فالإسلام لا يؤمن لا بالإتحاد ولا بالحلول ، لأن الله ليس كمثله شيء .

[6] - نفس المرجع السابق ، ص

[7] - نفس المرجع السابق ص 305 .

[8] - هنري كوربان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة نصير مرون حسين قبيس ، مراجعة الإمام موسى الصدر ، الأمير عارف تامر ، بيروت ، ط 1 ، سنة 1977 ص 294 .

ويشير ماسيسيون إلى أن ««الحلاج»» كانت له فكرة جديدة أثرت بشكل كبير على التصوف فيما بعد ، وهي فكرة وحدة الإيمان التي كانت ينادي بها حيث كان يعتبر أن الأديان كلها وإن اختلفت فإنها تتفق في حقيقة واحدة وتتحول بذلك الشعائر على اختلافها مجرد " وسائط يجب تجاوزها إلى الحقيقة الإلهية التي تنطوي عليها "([1]).

هذا بالإضافة إلى موقف ««الحلاج»» من إبليس وتبريره لرفضه للسجود لأدم ، فهذه الفكرة الأخرى بدورها أثارت جدل الكثير من المفكرين والفلاسفة ، فانشطروا إلى مواقف ومعارض .

لكن في كل الأحوال أدى هذا الموقف ««الحلاج»»ي إلى " نظرية هامة جدا تدعو دعوة خطيرة يصبح فيها الإسلام إجتماعا كاملا للإنسانية فقد غفرت لهم خطاياهم " ([2])

إن كل من «سقراط» و««الحلاج»» كان لهما تأثير كبير على الفكر الإنساني والفلسفي والصوفي لأن مواقفهما من أعظم المواقف الاستشهادية الثائرة على الإطلاق ، هذا إضافة إلى أنهما لم يكتفيا بعرض أفكارهما ونشرها بين العامة من الناس بل طابقا بين القول والفعل فكان «سقراط» نموذجا للفيلسوف الحكيم الذي أفنى حياته في تعليم الفضيلة ومحاربة العادات والتقاليد والسفسطائيين والبحث عن المعرفة الحقيقية والمعرفة الخالصة " بالتدرب على الموت كما كان يقول دائما وختم ذلك كل بلحظات موته ، وكان ««الحلاج»» أيضا نموذجا للصوفي الروحي الثائر الذي أفنى حياته في محاربة الظلم والدعوة إلى حب الله وفي حب الله ومات شهيدا .

الخاتمة

قد يعتمد البعض أن من يتناول إشكالية الموت يستخرج بالضرورة بنظرة جديدة تختلف تماما عن استفادة السابق أوانه سيطلع على أفكار جديدة لم يكن يعرفها أو كان يعرفها ولم ينتها إلى جوانبها . فهذا واقع وممكن في أي بموضوع كان سواء كان تشاؤميا كما يعتبر الموت وسوءا كان ...

المهم أدركت في نهاية هذه الدراسة أني كنت بصدد البحث حول فلسفة الحياة والحرية لا الموت ، ورغم مواجهتي له في كل لحظة من

---

[1] - محمد جلال شرف ، مذكور سابقا ص 306 .

[2] - نفس المرجع السابق ، ص 307 .

لحظات حياتي إلا أني كنت أفكر فيه كشيء وغير موجود لأن الموت الحقيقي هو ذلك الخوف والفزع والترقب وليس الموت في حد ذاته باعتبار أن لا أحد يستطيع أن يؤكد بأن الموت ألم أو لذة لأنه خارج عن نطاق معرفتنا وتجربتنا وكل ما نقول ونعرفه عن الموت هو فقط من خلال تجربة الآخر .

وإن كنت قد تطرقت في هذه الدراسة إلى وجهات نظر مختلفة حول الموت أسطورية ، فلسفية وبيولوجية ودينية ...

إلا أنني توقعت عند حكيمين غيرا من فكرة الموت بقدر ما غيرا من فكرة البشرية ، فكان موتها شاهدا على خلودها وإن ماتا بطريقتين مختلفتين إلا أنهما باعتقاد واحد وهو أن الموت هو طريق تحو الحب ونحو الحقيقة والخلود أي نحو الحياة ليفتحا ملاذا جديد لذلك الذي كان يخاف من الموت أو يبحث عن الحقيقة أو عن الراحة من عذاب العتق الإلهي . إنما إذا رأيه جديدة تكسر تلك الأصنام الراسخة في أذهاننا عن الموت بل تغير الاعتقاد ، وتجعلنا موتى نبحث عن الحياة .

قد تبدو هذه الفكرة الأخيرة غربية لكنها المبدأ الأساسي الذي انطلق منه ووصل إليه كل من الحكيمين " « «سقراط» " و" ««الحلاج»» " فيمتزج الموقف الفلسفي بالروح الدينية الصوفية ليخلف تواصلا روحيا يبحث عن التصالح مع الموت والتصالح مع الحقيقة الفلسفية حيث والحقيقة الإلهية حين آخر .

غير أن من يعتقد بأن إشكالية الموت هو جزء من حياتنا وأننا نولد لنموت ونعيش لنموت ولنرى الأخر يموت دون أن نستطيع منحه الحياة ، لكن نستطيع أن نفكر في موته وفي موتي ، أي أن نتفلسف ، فإذا لم يكن الموت هو الذي يحرك أفكارنا فمن يفعل ذلك إذا ؟ ...

هل الحياة ؟ أليست الحياة وجها آخر للموت ، هل الحب أليس ««الحلاج»» مات من أجل الحب ؟ هل الحقيقة ؟ أليس «سقراط» مات طمعا في الوصول إلى الحقيقة ؟ ربما الحرية ، أليس من يموت بطلا يموت حرا ومن أجل الحرية ، أليس الفلاسفة الحقيقيون هم من يشتغلون ويتدربون على الموت ...فكل موضوع كيفما كان إلا ويرتبط بالموت بشكل من الأشكال .

وتغدو بذلك إشكالية مفتوحة وغير شهية وموجودة في كل الخطابات الفلسفية الفكرية والدينية والدراسات البيولوجية والعلمية ، وهو ما يعبر ‘ن أهميتها وتأثيرها على فكرة الإنسان لكن لا يمكن أن نفهم الموت على أنه ذلك الجانب التشاؤمي المصري الحتمي الغامض ، وإنما قد يكون حاملا لمعاني أخرى لا نستطيع أن نحكم على سلبيتها باعتبار أننا لا نعيشها ، فكيف " «سقراط» " أن يطلب الموت ويرغب فيه ويتجرع السم وهو سعيد وكيف " للحلاج " أن يطلب الموت ويأمل فيه ويلد وتقطع يداه ورجلاه وهو سعيد ، كيف لهما أن يفعلا ذلك أن لم يكن الموت في تصورهما أحسن من الحياة ، وإن لم يكن سعيهما إلى الموت هو في الحقيقة سعي إلى الحياة .

قد تبدو هذه الفكرة السابقة خاصة " «سـقراط» " و " ««الحلاج»» " فقط لكنهـا تعـبر عـن رأيـه فلسـفية صـوفية أو عـن صـوفية متفلسـفة تـثير التأويـل وتـدعو إلـى التأمـل والتفكيـر لا إلـى اعتبـار مـوت «سـقراط» و ««الحلاج»» مجرد تطبيق العدالة أو حماية أثينا وحمايـة التصـوف ، فبإعـدام «سـقراط» حكمـت أثينـا علـى نفسـها بـالموت وحكمـت علـى «سـقراط» بالخلود وهو لا يزال حيا إلـى يومنـا هـذا رغـم لـم يكتـب أي شـيء ، وبصـلب ««الحلاج»» حكم على تلك الروح العاشقة الغارقة في الحب الإلهي بـالموت ، وحكم على ««الحلاج»» بالحياة لأنه لم يستطع تحمل ذلـك الشـوق والعشـق وأنه بالموت سيحيى وسيحقق الالتقاء والارتقاء والبقاء...

وعلى هذا لا يمكن أن نعرف أي شيء عـن المـوت لأنـه بـدون شـك يحمـل تعار يف كثيرة ومختلفة وتتعدد بتعدد الـرأي والمـذاهب والاعتقـاد ، ومـا أعرفـه عن الموت يختلف عن ما يعرفه الآخر ويشترك في كونه يسمى " الموت "

وأخيرا يجب أن تقرأ هذه الدراسة لا علـى أنهـا مجـرد دراسـة جيتيالوجيـة تاريخيـة للمفهـوم أو أراء مختلفـة حـوله ، أدلـى بهـا مجموعـة مـن الحكمـاء والفلاسـفة والمتصـوفة وإنمـا تقـرأ علـى أنهـا حـوار مـن أصـوات متعـددة وبالخصوص الحوار الفلسفي ال «سقراط» ي والصوفي «الحلاج»ي .

- **قائمة المصادر و المراجع :**

- **المصادر:**

أ- الأجنبية:

HUSAYN MANSUR HAlLAJ, DIWAN, traduit et présenté par louis Massignon, .éditions du seuil, Paris 1981

- **بالعربية :**

القران الكريم

- «الحلاج» ، ديوان «الحلاج» و معه أحبار «الحلاج» و كتاب الطوبين و ضع مواشيه و علق عليه : محمد باسل عيون السـود، دار الكتـب العلميـة بيـروت ، الطبعـة الثانيـة 2002.

2- المراجع :

أ- الأجنبية :

1- georas Polityer, principes élémentaires de philosophie, Editions sociales, Paris, 1997

2- leon Robin, la penssé Grecque et les origines de l'esprit Scientifique, éditions Albin Michel, Paris, 1948

3- Louis Massignon, recuell de textes inédits Conformant l'histoire de la mgstique .en pays d'islam, hibrairie de la orientaliste, paul genthner Paris, 1929

4- .Luois Massignon, akhbar al hablaj, librairie j vrim, Paris, 1975

5- Françoi chatebet, platon, éditions Gallimard, France, 1965

6- Romono Guardini, la mort de socrate

المراجع بالعربية :

- أوليري ، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ، ترجمة تمام حسان ، ملتزم الطبع والنشر المكتبة الأنجلومصرية ، بدون طيعة وتاريخ .
- إبن عربي ، وسائل ابن عربي ، تقديم محمد الغراب ، ضبط محمد شهاب الدين العربي ، دار بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة 1947 .
- إبن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى 2003 .
- ابراهيم بسيوني ، نشأة التصوف الإسلامي ، دار المعارف ، مصر بدون طبعة ، سنة 1969 .
- إبراهيم تركي ، فلسفة الموت عند الصوفية .
- الأميرة حلمي مطر ، الفلسفة اليونانية تاريخها وفلسفتها ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، طبعة جديدة ، سنة 1992 .
- أحمد أمين ، فجر الإسلام ، مكتبة النهضة ، مصر .
- أحمد توفيق عياد ، التصوف الإسلامي ، تاريخه ومدارسه وطبيعة أثره المكتبية الأنجاد مصرية ، القاهرة ، بدون طبعة سبتمبر 1970 .
- أندري كريستون ، «سقراط» ، تعريب بشارة صارحي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، سنة 1980 .
- أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البعادي ، تاريخ بغداد ومدينة السلام دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، الجزء الثاني ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة 1997 .
- باسمة كيال ، فلسفة الروح ، أصل الإنسان وسر الوجود ، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة 1982 .
- بدوي ، عبد الرحمن ، شخصيات - قلقة في الإسلام – دراسات إسلامية ألف بينها وترجمها ، عبد الرحمن بدوب ، دار النهضة العربية الطبعة الثانية 1964 .
- بدوي عبد الرحمن ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين ، ألف بينها وترجمها عن الألمانية والإيطالية عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، دار القلم بيروت ، الطبعة الرابعة 1980 .

- جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي ، ترجمة كامل يوسف ، حسين مراجعة وتقديم ، إمام عبد الفتاح إمام المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
- جان شوقلي ، التصوف والمتصوفة ، ترجمة عبد القادر قنيني ، إفريقيا الشرق ، لبنان ، بدون طبعة ، سنة 1994 .
- جيمس ، ب ، كارس ، الموت والوجود دراسات لتصورات الفناء الإنساني في التراث الديني والفلسفي العالمي ، ترجمة بدر الديب المجلس الأعلى للثقافة ، بدون طبعة 1998 .
- هيجل ، محاضرات في تاريخ الفلسفة ، مقدمة حول منظومة الفلسفة وتاريخها ، ترجمة خليل أحمد خليل ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ، 2002 .
- هنري كوديان ، تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ترجمة نصير مروان حسين ،قبيس ، مراجعة الإمام موسى الصدر والإمام عامر تامر ، الطبعة الأولى 1977 .
- ويل ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، المجلد الرابع طيعة الإدارة والثقافة للجامعة ، بيروت ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
- ولتر ستيس ، التصوف والفلسفة .
- ولتر ستيس ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثامنة 2005 .
- زكرياء إبراهيم ، مشكلة الإنسان ، ملتزم الطبع والنشر ، مصر ، الطبعة الأولى ، سنة 1959 .
- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار القلم ، بيروت ، بدون طبعة ، بدون تاريخ .
- الكلاباذي أبو بكر محمد ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، تحقيق وتقديم ومراجعة وتعليق محمود أمين النوادري ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة الطبعة الثانية 1970
- مجدي محمد إبراهيم ، مشكلة الموت عند صوفية الإسلام ، عاطف العراقي ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الأولى، 2004 .

- مرسيا الياذ ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي ، الجزء الثالث ، دار دمشق ، الطبعة الأولى 1986 .
- محمد جلال شرف ، دراسات في التصوف الإسلامي ، شخصيات ومذاهب دار النهضة العربية ، بيروت ، 1984 .
- محمد عبد الرحمان بيصار ، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، المكتبة المصرية ، الطبعة الثالثة ، سنة 1980.
- محمد بيصار ، الفلسفة اليونانية ، مقدمات ومذاهب ، دار الكتاب اللبناني ، بدون طبعة ، 1973 .
- محمد قاسم ، نصوص مختارة في الفلسفة الإسلامية ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1969 .
- محمد عزيز نظمي سالم ، تاريخ الفلسفة ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، بدون طبعة وبدون سنة .
- ميخائيل مسعود ، أدباء فلاسفة ، بحث في الأدب والفلسفة خلال العصور ، الجاهلي ، والأموي والعباسي ، دار العلم للملايين الطبعة الثانية ، سبتمبر 1999 .
- مصطفى النشار ، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي ، الجزء الأول السنا يقول على السفسطائيين ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون طبعة 1998 .
- عبد الحكيم عبد الغني قاسم ، المذاهب الصوفية ومدارسها ، مكتبة مديوني القاهرة ، الطبعة الثانية ، 1999 .
- عبد الرحمان بن الناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، سنة 2002 .
- عزيز السيد جاسم ، متصوفة بغداد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ، 1997
- علي حرب ، أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر ، مقاربات نقدية وسجالية ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة 1994 .
- فرانسيس ولف ، «سقراط» ، ترجمة منصور القاضي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، 2002 .

- رفيق العجم ، مصطلحات التصوف الإسلامي ، مكتبة لبنان ، ناشرون الطبعة الأولى ، 1989 .
- **الموسوعات والمعاجم :**

- العربية :

- أندري لالاند ، موسوعة لالاند الفلسفية ، الجـزء الثـاني ، تعريـب خليـل أحمـد خليـل ، تعهده وأشرف عليه ، أحمد عويدات بيروت ، باريس ، الطبعة الأولى 1996 .
- عبد المنعم حنفي ، الموسوعة الصوفية ، أعلام التصـوف والمفكريـن عليـه والطـرق الصوفية ، دار الرشيد ، الطبعة الأولى ، 1992 .
- رفيق العجـم ، موسـوعة مصـطلحات التصـوف الإس لامي ، ناشـرون ، مكتبـة لبنـان ، الطبعة الأولى ، 1999 .
- محمد عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلـى الفلسـفة الإسـلامية موسـوعة فلسفية شاملة ، المجلـد الأول ، عويـدات للنشـر والطباعـة ، بيـروت ، بـدون طبعـة ، بدون سنة
- عبد الرحمن حنفي ، الموسوعة الفلسفية ، دار المعارف للطباعـة والنشـر ، تـونس ، نوفمبر 1996 .